الفصل الثالث

الجهر بالدعوة وأساليب المشركين في محاربتها

المبحث الأول

الجهر بالدعوة

بعد الإعداد العظيم الذي قام به النبي ﷺ لتربية أصحابه، وبناء الجماعة المسلمة المنظمة الأولى على أسس عقدية، وتعبدية، وخلقية رفيعة المستوى، حان موعد إعلان الدعوة، بنزول قول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٤، ٢١٥].

فجمع قبيلته ﷺ وعشيرته، ودعاهم علانية إلى الإيمان بإله واحد، وخوَّفهم من العذاب الشديد إن عصوه، وأمرهم بإنقاذ أنفسهم من النار، وبيَّن لهم مسؤولية كل إنسان عن نفسه(١).

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صَعِد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي» ـ لبطون قريش ـ حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب، وقريش، فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي»؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا. قال: «فإنني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم! ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾ (٢) وفي رواية ـ ناداهم بطنًا بطنًا، ويقول لكل بطن: «أنقذوا أنفسكم من النار...»، ثم قال: «يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئًا، غير أن لكم رحمًا سأبُلها ببلالها»(٣).

كان القرشيون واقعيين عمليين، فلما رأوا محمدًا ﷺ وهو الصادق الأمين، قد وقف على جبل يرى ما أمامه، وينظر إلى ما وراءه، وهم ما يرون إلا ما هو أمامهم، فهداهم إنصافهم

---

(١) رسالة الأنبياء، عمر أحمد عمر (٣/ ٤٦).

(٢) البخاري ـ كتاب التفسير ـ سورة الشعراء ورقمه (٤٧٧٠) والآيتان من سورة المسد (١، ٢).

(٣) مسلم، كتاب الإيمان [٣٤٨ـ ٢٠٤)].

وذكاؤهم إلى تصديقه، فقالوا: نعم.

ولما تمت هذه المرحلة الطبيعية البدائية، وتحققت شهادة المستمعين، قال رسول الله ﷺ: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» وكان ذلك تعريفًا بمقام النبوة، وما ينفرد به من علم بالحقائق الغيبية والعلوم الوهبية، وموعظة وإنذارًا، في حكمة وبلاغة، لا نظير لهما في تاريخ الديانات والنبوات، فلم تكن طريق أقصر من هذا الطريق، ولا أسلوب أوضح من هذا الأسلوب، فسكت القوم[١]، ولكن أبا لهب قال: «تبًّا لك سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا»؟.. وبهذا كان النبي ﷺ قد وضع للأمة أسس الإعلام، فقد اختار مكانًا عاليًا وهو الجبل ليقف عليه، وينادي على جميع الناس، فيصل صوته إلى الجميع، وهذا ما تفعله محطات الإرسال في عصرنا الحديث، لتزيد من عملية الانتشار الإذاعي، ثم اختار لدعوته الأساس المتين ليبني عليه كلامه وهو الصدق، وبهذا يكون ﷺ قد علم رجال الإعلام والدعوة أن الاتصال بالناس بهدف إعلامهم أو دعوتهم، يجب أن يعتمد ـ وبصفة أساسية ـ على الثقة التامة بين المرسل والمستقبل، أو بين مصدر الرسالة والجمهور الذي يتلقى الرسالة، كما أن المضمون أو المحتوى يجب أن يكون صادقًا لا كذب فيه[٢].

«ومن الطبيعي أن يبدأ الرسول ﷺ دعوته العلنية بإنذار عشيرته الأقربين، إذ أن مكة بلد توغلت فيه الروح القبلية، فبدء الدعوة بالعشيرة، قد يعين على نصرته وتأييده، وحمايته، كما أن القيام بالدعوة في مكة لا بد أن يكون له أثر خاص، لما لهذا البلد من مركز ديني خطير، فجلبها إلى حظيرة الإسلام، لا بد وأن يكون له وقع كبير على بقية القبائل، لأن الإسلام ـ كما يتجلى من القرآن الكريم ـ اتخذ الدعوة في قريش خطوة أولى لتحقيق رسالته العالمية»[٣]، فقد جاءت الآيات المكية تبين عالمية الدعوة، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفُرقان: الآية ١].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبيَاء: الآية ١٠٧] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سَبَأ: ٢٨].

ثم جاءت مرحلة أخرى بعدها، فأصبح يدعو فيها كل من يلتقي به من الناس، على اختلاف قبائلهم وبلدانهم، ويتبع الناس في أنديتهم، ومجامعهم ومحافلهم، وفي المواسم ومواقف الحج، ويدعو من لقيه من حر وعبد، وقوي وضعيف، وغني وفقير[٤]، حين نزول قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي (ص ١٣٨).

(٢) انظر: الحرب النفسية ضد الإسلام، د. عبد الوهاب كحيل (ص ١٢١).

(٣) انظر: دراسات في السيرة، عماد الدين خليل (ص ٦٦).

(٤) انظر: رسالة الأنبياء (٣/٤٨، ٤٩).

يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحِجر: الآيات ٩٤ ـ ٩٧].

كانت النتيجة لهذا الصدع هي الصد والإعراض والسخرية والإيذاء والتكذيب، والكيد المدبر المدروس، وقد اشتد الصراع بين النبي ﷺ وصحبه، وبين شيوخ الوثنية وزعمائها، وأصبح الناس في مكة يتناقلون أخبار ذلك الصراع في كل مكان، وكان هذا في حد ذاته مكسبًا عظيمًا للدعوة، ساهم فيه أشد وألد أعدائها، ممن كان يشيعون في القبائل قالة السوء عنها، فليس كل الناس يسلمون بدعاوى زعماء الكفر والشرك.

كان الوسيلة الإعلامية في ذلك العصر تناقل الناس للأخبار مشافهة، وسمع القاصي والداني بنبوة الرسول ﷺ، وصار هذا الحدث العظيم حديث الناس في المجالس ونوادي القبائل، وفي بيوت الناس[1].

* أهم اعتراضات المشركين:

كان أهم اعتراضات زعماء الشرك موجهة نحو وحدانية الله تعالى، والإيمان باليوم الآخر، ورسالة النبي ﷺ، والقرآن الكريم الذي أنزل عليه من رب العالمين.

وفيما يلي تفصيل لهذه الاعتراضات والرد عليها:

أولًا: اعتراضهم على الوحدانية:

لم يكن كفار مكة ينكرون أن الله خلقهم وخلق كل شيء.

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: الآية ٢٥]. لكنهم كانوا يعبدون الأصنام، ويزعمون أنها تقربهم إلى الله، قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ[2] إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

وقد انتقلت عبادة الأصنام إليهم من الأمم المجاورة لهم، ولهذا قابلوا الدعوة إلى التوحيد بأعظم إنكار، وأشد استغراب[3]، قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾[4] [صَ: الآيات ٤ ـ ٧] ولم يكن تصورهم لله تعالى ولعلاقته بخلقه صحيحًا، إذ كانوا يزعمون أن لله تعالى صاحبة من الجن، وأنها

(١) انظر: الغرباء الأولون (ص ١٦٧).

(٢) زلفى: قربى.

(٣) انظر: رسالة الأنبياء (٣/ ٥٢).

(٤) احتجوا بما عليه النصارى من الشرك والتثليث.

ولدت الملائكة، وأن الملائكة بنات الله ـ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً!

فكانت الآيات تنزل مُبيِّنَةً أن اللهﷻ خلق الجن، والملائكة، كما خلق الإنس، وأنه لم يتخذ ولدًا، ولم تكن له صاحبة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا (١) لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١)﴾ [الأنعام: ١٠٠، ١٠١]. ومُبيِّنة أن الجن يقرون لله بالعبودية، وينكرون أن يكون بينهم وبينه علاقة نسب:

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصَّافات: الآية ١٥٨].

ومطالبةً المشركين باتباع الحق، وعدم القول بالظنون والأوهام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى (٢٧) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨)﴾ [النَّجْم: ٢٧، ٢٨]. وموضحة أنه لا يعقل أن يمنح الله المشركين البنين، ويكون له بنات، وهن أدنى قيمة في رأيهم من البنين: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسرَاء: الآية ٤٠].

ومُحمِّلة المشركين مسئولية أقوالهم التي لا تقوم على دليل: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزّخرُف: الآية ١٩].

ثانيًا: كفرهم بالآخرة:

أما دعوة الرسول ﷺ إلى الإيمان باليوم الآخر، فقد قابلها المشركون بالسخرية والتكذيب: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سَبَإ: الآيتان ٧، ٨] فقد كانوا ينكرون بعث الموتى: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٢٩].

ويقسمون على ذلك بالأيمان المغلظة:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ [النّحل: الآيتان ٣٨، ٣٩] وكانوا يظنون أنه لا توجد حياة في غير الدنيا، ويطلبون إحياء آبائهم ليصدقوا بالآخرة، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلِلَّهِ مُلْكُ

(١) اختلقوا.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الجاثية: الآيات ٢٤ ـ ٢٧] .

وفاتهم أن الذي خلقهم أول مرة قادر على أن يحييهم يوم القيامة، قال مجاهد وغيره: جاء أُبي بن خلف[١] إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم، وهو يفتته ويذروه في الهواء، وهو يقول: يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟ قال ﷺ: «نعم يميتك الله تعالى، ثم يبعثك، ثم يحشرك إلى النار» ونزلت هذه الآيات [٢] ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: الآيات ٧٧ ـ ٧٩] .

كانت أساليب القرآن الكريم في إقناع الناس بالبعث اعتمدت على خطاب العقل، والانسجام مع الفطرة، والتجاوب مع القلوب، فقد ذكَّر الله عباده أن حكمته تقتضي بعث العباد للجزاء والحساب، فإن الله خلق الخلق لعبادته، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، لبيان الطريق الذي به يعبدونه ويطيعونه، ويتبعون أمره، ويجتنبون نهيه، فمن العباد من رفض الاستقامة على طاعة الله، وطغى وبغى. أفليس بعد أن يموت الطالح والصالح، لا بد أن يجزي الله المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ [القلم: الآيات ٣٥ ـ ٣٨] . إن الملاحدة الذين ظلموا أنفسهم هم الذين يظنون الكون خلق عبثًا وباطلاً لا لحكمة، وأنه لا فرق بين مصير المؤمن المصلح، والكافر المفسد، ولا بين التقي والفاجر[٣] قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: الآيتان ٢٧، ٢٨] .

وضرب القرآن الكريم للناس الأمثلة في إحياء الأرض بالنبات، وإن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إعادة الحياة إلى الجثث الهامدة، والعظام البالية: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: الآية ٥٠] .

وذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه إحياء بعض الأموات في هذه الحياة الدنيا، فأخبر الناس في كتابه عن أصحاب الكهف، بأنه ضرب على آذانهم في الكهف ثلاثمائة وتسع سنين، ثم قاموا من رقدتهم بعد تلك الأزمان المتطاولة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ [الكهف: الآية ١٢] . ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ۖ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:

---

(١) وفي رواية عن ابن عباس أنه العاص بن وائل.

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٨١).

(٣) انظر: الوسطية في القرآن الكريم (ص ٤٠٢).

الآية ١٩] . ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ [الكهف: الآية ٢٥] وغير ذلك من الأدلة والبراهين التي استخدمها رسول الله ﷺ في مناظراته مع زعماء الكفر والشرك.

ثالثًا: اعتراضهم على رسول الله ﷺ:

اعترضوا على شخص الرسول ﷺ، فقد كانوا يتصورون أن الرسول لا يكون بشرًا مثلهم، وأنه ينبغي أن يكون مَلَكًا، أو مصحوبًا بالملائكة: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ٩٤] .

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٨] .

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٩] .

أي لو بعثنا إلى البشر رسولاً من الملائكة لكان على هيئة الرجل، يمكنهم مخاطبته والأخذ عنه، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشر[(١)]، وكانوا يريدون رسولاً لا يحتاج إلى طعام وسعي في الأسواق: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨﴾ [الفرقان: ٧ ـ ٨] . وكأنهم لم يسمعوا بأن الرسل جميعًا كانوا يأكلون ويسعون ويعملون: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۝٢٠﴾[(٢)] [الفرقان: الآية ٢٠] .

ويريدون أن يكون الرسول كثير المال، كبيرًا في أعينهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: الآية ٣١] . ويريدون الوليد بن المغيرة بمكة، وعروة بن مسعود الثقفي بالطائف[(٣)].

ونسبوا الرسول ﷺ إلى الجنون:

﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧﴾ [الحجر: ٦ ـ ٧] .

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤﴾ [الدخان: ١٣ ـ ١٤] .

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٢٤).

(٢) اختبرنا بعضكم ببعض.

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ١٢٦، ١٢٧).

وردّ الله عليهم بقوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القَلَم: الآية ٢].

كما نسبوه إلى الكهانة والشعر:

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ [الطُّور: ٢٩ ـ ٣٠].

كما أنهم كانوا يعلمون أنه لا ينظم الشعر، وأنه راجح العقل، وأن ما يقوله بعيد عن سجع الكهان، وقول السحرة[١].

ونسبوه ﷺ إلى السحر والكذب: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [صٓ: الآية ٤].

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسرَاء: الآيتان ٤٧، ٤٨] وكانت الآيات تتنزل على رسول الله ﷺ تفند مزاعم المشركين، وتبين له أن الرسل السابقين استهزىء بهم، وأن العذاب عاقبة المستهزئين: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعَام: الآية ١٠] وتعلمه أن المشركين لا يكذبون شخصه، ولكنهم يكذبون رسالته، ويدفعون آيات الله بتلك الأقاويل[٢]: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعَام: الآية ٣٣].

رابعًا: موقفهم من القرآن الكريم:

كذلك لم يصدقوا أن القرآن الكريم منزل من الله، واعتبروه ضربًا من الشعر، الذي كان ينظمه الشعراء، مع أن كل من قارن بين القرآن وبين أشعار العرب يعلم أنه مختلف عنها: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يسٓ: الآيتان ٦٩، ٧٠] وكيف يكون القرآن شعرًا، وقد نزل فيه ذم للشعراء الذين يضلون الناس، ويقولون خلاف الحقيقة[٣].

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ[٤] ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآيات ٢٢٤ ـ ٢٢٦] فهو كلام الله المنزل على رسوله، وليس شبيهًا بقول الشعراء، ولا بقول الكهان: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الواقِعَة: ٤٠ ـ ٤٣].

---

(١) انظر: رسالة الأنبياء (٣/ ٥٧).

(٢) المصدر نفسه (٣/ ٥٨).

(٣) المصدر نفسه (٣/ ٥٩).

(٤) يعني: الضالون.

وقد أدرك الشعراء قبل غيرهم، أن القرآن الكريم ليس شعرًا[١]، ومن فرط تكذيبهم وعنادهم قالوا: إن محمدًا يتعلم القرآن من رجل أعجمي[٢]، كان غلامًا لبعض بطون قريش، وكان بياعًا، يبيع عند الصفا، وربما كان الرسول ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء. وذاك كان أعجمي اللسان، لا يعرف من العربية إلا اليسير، بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: الآية ١٠٣].

أي فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن من فصاحته وبلاغته، ومعانيه التامة الشاملة، من رجل أعجمي؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل[٣].

واعترضوا على طريقة نزول القرآن، فطلبوا أن ينزل جملة واحدة، مع أن نزوله مُفَرَّقًا أدعى لتثبيت قلوب المؤمنين به، وتيسير فهمه وحفظه وامتثاله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: الآية ٣٢].

فلما اعترض المشركون على القرآن، وعلى ما أنزل عليه بهذه الاعتراضات، تحداهم الله بأن يأتوا بمثله، وأعلن عن عجز الإنسان والجن مجتمعين عن ذلك: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: الآية ٨٨].

بل هم عاجزون عن أن يأتوا بعشر سور مثله:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: الآيتان ١٣، ١٤].

وحتى السورة الواحدة هم عاجزون عنها: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: الآيتان ٣٧، ٣٨].

فعجزهم، مع أن الفصاحة كانت من سجاياهم، وكانت أشعارهم ومعلقاتهم في قمة البيان، دليل على أن القرآن كلام الله الذي لا يشبهه شيء في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وأقواله، وكلامه لا يشبه كلام المخلوقين[٤].

---

(١) انظر: رسالة الأنبياء (٣/ ٥٩).

(٢) انظر: تهذيب السيرة (١/ ٧٤، ٩٠)، وانظر سيرة ابن هشام (ق ١/ ٣٩٣).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٥٨٦).

(٤) انظر: رسالة الأنبياء (٣/ ٦٦).

المبحث الثاني

سنة الابتلاء

الابتلاء ـ بصفة عامة ـ سنة الله في خلقه، وهذا واضح في تقريرات القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: الآية ١٦٥] . وقال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: الآية ٧] . وقال جل شأنه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: الآية ٢] .

الابتلاء مرتبط بالتمكين ارتباطًا وثيقًا؛ فلقد جرت سنة الله تعالى ألا يُمكِّن لأمة إلا بعد أن تمر بمراحل الاختبار المختلفة، وإلا بعد أن ينصهر معدنها في بوتقة الأحداث، فيميز الله الخبيث من الطيب، وهي سنّة جارية على الأمة الإسلامية لا تتخلف، فقد شاء الله ـ تعالى ـ أن يبتلي المؤمنين، ويختبرهم، ليمحص إيمانهم، ثم يكون لهم التمكين في الأرض بعد ذلك، ولذلك جاء هذا المعنى على لسان الإمام الشافعي رضي الله عنه حين سأله رجل: أيهما أفضل للمرء، أن يُمكن أو يبتلى؟ فقال الإمام الشافعي: لا يُمكن حتى يبتلى، فإن الله ـ تعالى ـ ابتلى نوحًا وإبراهيم، وموسى وعيسى، ومحمدًا ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ فلما صبروا مكنهم فلا يظن أحد أن يخلص من الألم ألبتة[١].

حكمة الابتلاء وفوائده:

للابتلاء حكم كثيرة من أهمها:

١ ـ تصفية الصفوف:

جعل الله الابتلاء وسيلة لتصفية نفوس الناس، ومعرفة المحق منهم والمبطل، وذلك لأن المرء قد لا يُكشف في الرخاء، لكنه تكشفه الشدة، قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: الآية ٢] .

٢ ـ تربية الجماعة المسلمة:

وفي هذا يقول سيد قطب رحمه الله: «ثم إنه الطريق الذي لا طريق غيره لإنشاء الجماعة، التي تحمل هذه الدعوة وتنهض بتكاليفها، طريق التربية لهذه الجماعة، وإخراج مكنوناتها من الخير والقوة والاحتمال، وهو طريق المزاولة العملية للتكاليف، والمعرفة الواقعية لحقيقة الناس، وحقيقة الحياة، ذلك ليثبت على هذه الدعوة أصلب أصحابها عودًا، فهؤلاء هم الذين يصلحون لحملها؛ إذن بالصبر عليها، فهم عليها مؤتمنون»[٢].

---

(١) الفوائد لابن القيم (ص ٢٨٣)..

(٢) في ظلال القرآن (٢/ ١٨٠).

٣ ـ الكشف عن خبايا النفوس:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال: «والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء، ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع ماهو مكشوف لعلم الله، مغيب عن علم البشر، فيحاسب الناس إذن على ما يقع من عملهم لا على مجرد ما يعلمه سبحانه من أمرهم، وهو فضل من الله من جانب، وعدل من جانب، وتربية للناس من جانب، فلا يأخذوا أحدًا إلا بما استعلن من أمره وبما حققه فعله، فليسوا بأعلم من الله بحقيقة قلبه»[١].

٤ ـ الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال: «وما بالله ـ حاشا لله ـ أن يعذب المؤمنين بالابتلاء، وأن يؤذيهم بالفتنة، ولكنه الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة، فهي في حاجة إلى إعداد خاص، لا يتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق، وإلا بالاستعلاء الحقيقي على الشهوات، وإلا بالصبر الحقيقي على الآلام. وإلا بالثقة الحقيقية في نصر الله وثوابه، على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء. والنفس تصهرها الشدائد، فتنفي عنها الخبيث، وتستجيش كامن قواها المذخورة، فتستيقظ وتتجمع، وتطرقها بعنف وشدة، فيشتد عودها، ويصلب ويصقل، وكذلك تفعل الشدائد بالجماعات، فلا يبقى صامدًا إلا أصلبها عودًا، وأقواها طبيعة، وأشدها اتصالاً بالله، وثقة فيما عنده من الحسنيين النصر أو الأجر، وهؤلاء هم الذين يسلمون الراية في النهاية مؤتمنين عليها بعد الاستعداد والاختبار»[٢].

٥ ـ معرفة حقيقة النفس:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال: «وذلك لكي يعرف أصحاب الدعوة حقيقتهم هم أنفسهم، وهم يزاولون الحياة والجهاد مزاولة عملية واقعية، ويعرفوا حقيقة النفس البشرية وخباياها، حقيقة الجماعات والمجتمعات، وهم يرون كيف تصطرع مبادىء دعوتهم مع الشهوات في أنفسهم، وفي أنفس الناس، ويعرفون مداخل الشيطان إلى هذه النفوس، ومزالق الطريق، ومسارب الضلال»[٣].

٦ ـ معرفة قدر الدعوة:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال: «وذلك لكي تعز هذه الدعوة عليهم، وتغلو بقدر ما يصيبهم في سبيلها من غث وبلاء، وبقدر ما يضحون في سبيلها من عزيز وغال، فلا يفرطوا فيها بعد ذلك مهما كانت الأحوال»[٤].

٧ ـ الدعاية لها:

فصبر المؤمنين على الابتلاء دعوة صامتة لهذا الدين، وهي التي تدخل الناس في دين

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٨٧) أو (٥/ ٢٧٢٠).
(٢) المصدر نفسه (٦/ ٣٨٩) أو (٥/ ٢٧٢١).
(٣) المصدر نفسه (٢/ ١٨١).
(٤) المصدر نفسه (٢/ ١٨٠).

الله، ولو وهنوا أو استكانوا لما استجاب لهم أحد، لقد كان الفرد الواحد يأتي إلى النبي ﷺ ثم يأتيه أمر النبي ﷺ أن يمضي إلى قومه، يدعوهم، ويصبر على تكذيبهم وأذاهم، ويتابع طريقه حتى يعود بقومه إلى رسول الله ﷺ[١]، وسنرى ذلك في الصفحات القادمة إن شاء الله.

٨ ـ جذب بعض العناصر القوية إليها:

وأمام صمود المسلمين وتضحياتهم، تتوق النفوس القوية إلى هذه العقيدة، ومن خلال الصلابة الإيمانية، تكبر عند هذه الشخصيات الدعوة وحاملوها، فيسارعون إلى الإسلام دون تردد، وأعظم الشخصيات التي يعتز بها الإسلام دخلت إلى هذا الدين من خلال هذا الطريق[٢].

٩ ـ رفع المنزلة والدرجة عند الله، وتكفير السيئات:

قال رسول الله ﷺ: «ما يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة، أو حطَّ عنه بها خطيئة»[٣]، فقد يكون للعبد درجة عند الله تعالى لا يبلغها بعلمه فيبتليه الله تعالى حتى يرفعه إليها، كما أن الابتلاء طريق لتكفير سيئات المسلم[٤].

كما أن للابتلاء فوائد عظيمة منها: معرفة عز الربوبية وقهرها، معرفة ذل العبودية وكسرها، الإخلاص، الإنابة إلى الله والإقبال عليه، التضرع والدعاء، الحلم عمن صدرت عنه المصيبة، العفو عن صاحبها، الصبر عليها، الفرح بها لأجل فوائدها، الشكر عليها، رحمة أهل البلاد، ومساعدتهم على بلواهم، معرفة قدر نعمة العافية، والشكر عليها؛ ما أعده الله تعالى على هذه الفوائد من ثواب الآخرة على اختلاف مراتبها، وغير ذلك من الفوائد. ومن أراد التوسع فليراجع كتاب فقه الابتلاء[٥].

المبحث الثالث

أساليب المشركين في محاربة الدعوة

أجمع المشركون على محاربة الدعوة التي عرَّت واقعهم الجاهلي، وعابت آلهتهم، وسفهت أحلامهم ـ أي آراءهم وأفكارهم ـ وتصوراتهم عن الله والحياة، والإنسان والكون، فاتخذوا العديد من الوسائل والمحاولات لإيقاف الدعوة، وإسكات صوتها، أو تحجيمها، وتحديد مجال انتشارها.

---

(١) انظر: فقه السيرة النبوية (ص ١٩٢، ١٩٣).

(٢) انظر: فقه السيرة النبوية (ص ١٩٣، ١٩٤).

(٣) مسلم بشرح النووي (٦/ ١٢٧، ١٢٨)، كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن، ورقمه (٢٥٧٢).

(٤) انظر: التمكين للأمة الإسلامية (ص ٢٤٤)، وانظر: فقه الابتلاء، محمد أبو صعيليك (ص ٨ـ ١١).

(٥) انظر: فقه الابتلاء، محمد أبو صعيليك (ص ١٥ ـ ٢٨).

أولاً: محاولة قريش لإبعاد أبي طالب عن مناصرة وحماية رسول الله ﷺ:

«جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا: إن ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا، فانهه عنا، . . . فقال أبو طالب لرسول الله ﷺ: «إن بني عمك هؤلاء زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم، فانته عن أذاهم، فحلق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فقال: «ترون هذه الشمس؟». قالوا: نعم، قال: «فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشعلوا منها بشعلة» وفي رواية: «والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحد من هذه الشمس شعلة من نار» فقال أبو طالب: «والله ما كذب ابن أخي قط، فارجعوا راشدين»[(١)] وحاولت قريش مرات عديدة الضغط على رسول الله ﷺ بواسطة عائلته ولكنها فشلت.

ذاع أمر حماية أبي طالب لابن أخيه، وتصميمه على مناصرته، وعدم خذلانه، فاشتد ذلك على قريش غمًّا وحسدًا ومكرًا، فمشوا إليه بعُمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له: «يا أبا طالب هذا عُمارة بن الوليد، أنهد فتى في قريش، وأجمله، فلك عقله[(٢)] ونصره، واتخذه ولدًا فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك، هذا الذي خالف دينك، ودين آبائك، وفرّق جماعة قومك، وسفَّه أحلامنا، فنقتله فإنما هو رجل برجل» قال: «والله لبئس ما تسومونني، أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني فتقتلونه، هذا والله ما لا يكون أبدًا»[(٣)].

وإن المرء ليسمع عجبًا، ويقف مذهولاً أمام مروءة أبي طالب مع رسول الله ﷺ، فقد ربط أبو طالب مصيره بمصير ابن أخيه محمد ﷺ، بل واستفاد من كونه زعيم بني هاشم أن ضم بني هاشم، وبني المطلب إليه في حلف واحد، على الحياة والموت، تأييدًا لرسول الله ﷺ، مسلمهم ومشركهم على السواء[(٤)]، وأجار ابن أخيه محمدًا إجارة مفتوحة، لا تقبل التردد أو الإحجام، كانت هذه الأعراف الجاهلية والتقاليد العربية، تسخر من قبل النبي ﷺ لخدمة الإسلام، وقد قام أبو طالب حين رأى قريشًا تصنع ما تصنع في بني هاشم وبني المطلب، فدعاهم إلى ماهو عليه، من منع رسول الله ﷺ، والقيام دونه؛ فاجتمعوا إليه وقاموا معه، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه، إلا ما كان من أبي لهب عدو الله اللعين.

فلما رأى أبو طالب من قومه ما سرّه من جهدهم معه، وحدبهم عليه، جعل يمدحهم، ويذكر قديمهم، ويذكر فضل رسول الله ﷺ فيهم، ومكانه منهم ليشد لهم رأيهم، ليحدَبوا معه على أمره فقال:

إذا اجتمعَتْ يومًا قريشٌ لمفخر ... فعبدُ مناف سرها وصميمُها
وإن حُصّلت أشرافُ عبدِ منافها ... ففي هاشم أشرافُها وقديمها
وإن فَخَرَتْ يومًا فإنَّ محمدًا ... هو المصطفى من سرّها وكريمُها

---

(١) صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي (ص ٧٨).
(٢) فلك عقله: أي ديته إذا قتل.
(٣) البداية والنهاية (٣/ ٤٨).
(٤) انظر: فقه السيرة النبوية (ص ١٨٤).

تداعتْ قريشٌ غَثُّها وسمينُها ... علينا فلم تظفَر وطاشتْ حُلُومها
وكنا قديمًا لا نُقِرُّ ظُلامةً ... إذا ما ثنَوا صُعْر الخدود نُقيمها[١]

وحين حاول أبو جهل أن يخفر جوار أبي طالب، تَصدى له حمزة، فشجه بقوسه وقال له: تشتم محمدًا وأنا على دينه، فرد ذلك إن استطعت.

إنها ظاهرة فذة، أن تقوم الجاهلية بحماية من يسب آلهتها، ويعيب دينها، ويسفه أحلامها، وباسم هذه القيم يقدمون المهج والأرواح، ويخوضون المعارك والحروب، ولا يمس محمد بسوء.

ولما خشي أبو طالب دَهماءَ العرب أن يركبوه مع قومه، قال قصيدته التي تعوَّذ فيها بحرمة مكة، وبمكانه منها، وتودد فيها أشراف قومه، وهو على ذلك يخبرهم في ذلك من شعره، أنه غير مسلّم رسول الله ﷺ، ولا تاركه لشيء أبدًا حتى يهلك دونه فقال:

ولمَّا رأيتُ القوم لا وُدّ فيهمُ ... وقد قطعوا كل العُرَى والوسائل
وقد صارَحونا بالعداوة والأذى ... وقد طاوعوا أمرَ العَدُوّ المُزايل
وقد حالفوا قومًا علينا أَظِنَّةً ... يَعُضُّون غَيظًا خَلْفنا بالأنامل
صبرتُ لهم نفسي بسَمْراء[٢] سَمحةٍ ... وأبيضَ[٣] عَضْب من تُراث المَقاول
وأحضرتُ عند البيتِ رَهطي وإِخوتي ... وأمسكت من أثوابِه بالوصائل[٤]

وتعوذ بالبيت وبكل المقدسات التي فيه، وأقسم بالبيت، بأنه لم يسلّم محمدًا ولو سالت الدماء أنهارًا، واشتدت المعارك مع بطون قريش:

كذبتم وبيت الله نُبْزَى[٥] محمدًا ... وَلمَّا نطاعن دونه ونناضل
ونُسلمه[٦] حتى نصرَّع حوله ... ونَذْهَل عن أبنائنا والحلائل[٧]
وينهض قوم في الحديد إليكمُ ... نهوض الرَّوايا[٨] تحت ذات الصَّلاصل[٩]

وقَرّع زعماء بني عبد مناف، بأسمائهم لخذلانهم إياه، فلعتبة بن ربيعة يقول:

فعُتبة لا تَسمع بنا قولَ كاشِح ... حَسود كذوب مُبْغض ذي دَغاوِل[١٠]

ولأبي سفيان بن حرب يقول:

ومَرَّ أبو سفيان عنّي مُعْرِضًا ... كما مَرَّ قَيْل[١١] من عِظام المقاول

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٦٩).
(٢) سمراء: كناية عن الرمح.
(٣) أبيض عضب: كناية عن السيف.
(٤) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٧٣).
(٥) نُبزَى: أي نُسلَبه ونُغلب عليه.
(٦) ونسلمه حتى نصرع حوله، أي كذبتم أن نسلمه قبل أن نصرع حوله.
(٧) الحلائل: الزوجات.
(٨) الروايا: الإبل التي تحمل الماء والأسقية.
(٩) الصلاصل: المزادات لها صلصلة بالماء.
(١٠) الدغاول: الدواهي.
(١١) قَيْل: الرئيس الكبير في اليمن.

يَـفِـرُّ إِلـى نَـجْـد وَبْـردِ مـيـاهـه ويـزعـمُ أني لسـتُ عـنـكـم بـغـافِـل[١]

وللمطعم بن عدي سيد بني نوفل يقول:

أَمُـطـعِـمُ لـم أخـذُلْـك فـي يـومِ نـجـدةٍ ولا مُـعْـظِـم عـنـد الأمـورِ الـجـلائـل

أَمُـطـعِـمُ إِن الـقـومَ سـامـوكَ خُـطَّـة وإنـي مـتـى أُوكَـلْ فـلـسـت بـوائـل[٢]

جـزى الله عـنَّـا عـبـد شـمـس ونَـوفـلاً عُـقـوبـة شـرٍ عـاجـلاً غـيـرَ آجـل[٣]

لقد كان كسب النبي ﷺ عمه في صفِّ الدفاع عنه، نصرًا عظيمًا، وقد استفاد ﷺ من العرف القبلي فتمتع بحماية العشيرة، ومُنع من أي اعتداء يقع عليه، وأعطي حرية التحرك، والتفكير، وهذا يدل على فهم النبي ﷺ للواقع الذي يتحرك فيه، وفي ذلك درس بالغ للدعاة إلى الله تعالى، للتعامل مع بيئتهم ومجتمعاتهم، والاستفادة من القوانين والأعراف والتقاليد لخدمة دين الله.

ثانيًا: محاولة تشويه دعوة الرسول ﷺ:

قام مشركو مكة بتشويه دعوة الرسول ﷺ، ولذلك نظمت قريش حربًا إعلامية ضده، لتشويهه، قادها الوليد بن المغيرة، حيث اجتمع مع نفر من قومه، وكان ذا سن فيهم، وقد حضر موسم الحج، فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيًا واحدًا، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا، ويرد قولُكم بعضُه بعضًا.

- فقالوا: فأنت يا أبا عبد شمس، فقل وأقم لنا رأيًا نقول به.

- قال: بل أنتم قولوا أسمع.

- فقالوا: نقول كاهن.

- فقال: ما هو بكاهن، لقد رأيت الكهان فما هو بزمزمة[٤] الكاهن وسجعه.

- فقالوا: نقول مجنون.

- فقال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو تخنقه، ولا تخالجه ولا وسوسته.

- فقالوا: نقول شاعر.

- فقال: ما هو بشاعر، قد عرفنا الشعر برجزه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر.

---

(١) انظر: فقه السيرة النبوية، ص ٢١٢.

(٢) لست بوائل: لست بناجٍ.

(٣) انظر: فقه السيرة النبوية (ص ٢١٢).

(٤) الزمزمة: كلام خفي لا يسمع.

ـ قالوا: فنقول ساحر.

ـ قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحّار وسحرهم، فما هو بنفثه ولا عقده.

ـ قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟

قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق[١]، وإن فرعه لجناة[٢]، وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عرف أنه باطل. وإن أقرب القول لأن تقولوا: ساحر، فقولوا: ساحر يفرق بين المرء وبين أبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته[٣].

فأنزل الله تعالى في الوليد: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا[٤] ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا[٥] ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ[٦] ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ[٧] ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ[٨] ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدَّثِّر: الآيات ١١ ـ ٢٦].

ويتضح من هذه القصة، أن الحرب النفسية المضادة للرسول ﷺ لم تكن توجه اعتباطًا، وإنما كانت تعد بإحكام ودقة بين زعماء الكفار، وحسب قواعد معينة، هي أساس القواعد المعمول بها في تخطيط الحرب النفسية في العصر الحديث، كاختيار الوقت المناسب، فهم يختارون وقت تجمع الناس في موسم الحج، والاتفاق وعدم التناقض، وغير ذلك من هذه الأسس حتى تكون حملتهم منظمة، وبالتالي لها تأثير على وفود الحجيج، فتؤتي ثمارها المرجوة منها. ومع اختيارهم للزمان المناسب، فقد اختاروا أيضًا مكانًا مناسبًا حتى تصل جميع الوفود القادمة إلى مكة[٩]، ويتضح من هذا الخبر، عظمة النبي ﷺ وقوته في التأثير بالقرآن على سامعيه، فالوليد بن المغيرة كبير قريش، ومن أكبر ساداتهم، ومع ما يحصل عادة للكبراء من التكبر والتعاظم، فإنه قد تأثر بالقرآن ورق له، واعترف بعظمته، ووصفه بذلك

---

(١) العذق: النخلة.

(٢) الجناة: ما يجنى من الثمر.

(٣) السير والمغازي لابن إسحاق (ص ١٥٠، ١٥١)، تهذيب السيرة (١/ ٦٤، ٦٥)، سيرة ابن هشام (ق ١/ ٢٧٠، ٢٧١).

(٤) واسعًا.

(٥) أي: عذابًا شديدًا.

(٦) أي: تروى ماذا يقول في القرآن.

(٧) أي: قبض بين عينيه وكلح وقطب.

(٨) أي: هذا سحر ينقله محمد عن غيره ممن قبله ويحكيه عنهم.

(٩) انظر: الحرب النفسية ضد الإسلام، د. عبد الوهاب كحيل (ص ١٠٣).

الوصف البليغ[١]، وهو في حالة استجابة لنداء العقل، ولم تستطع تلك الحرب الإعلامية المنظمة أن تحاصر دعوة رسول الله ﷺ، بل استطاع محمد ﷺ أن يخترق حصار الأعداء، الذين لم يكتفوا بتنفير ساكني مكة من رسول الله ﷺ، وتشويه سمعته عندهم، بل صاروا يتلقون الوافدين إليهم؛ ليسمّموا أفكارهم، وليحولوا بينهم وبين سماع كلامه، والتأثر بدعوته، فقد كان رسول الله ﷺ عظيم النجاح في دعوته، بليغًا في التأثير فيمن خاطبه حيث يؤثر فيمن جالسه بهيئته، وسمته ووقاره، قبل أن يتكلم، ثم إذا تحدث أَسَرَ سامعيه بمنطقه البليغ، المتمثل في العقل السليم، والعاطفة الجياشة بالحب والصفاء، والنية الخالصة في هداية الأمة، بوحي الله تعالى[٢]، ومن أبرز الأمثلة على قوته في التأثير بالكلمة المعبرة، والأخلاق الكريمة، وقدرته على اختراق الجدار الحديدي، الذي حاول زعماء مكة ضربه عليه، ماكان من موقفه مع ضماد الأزدي، وعمرو بن الطفيل الدوسي، وأبي ذر، وعمرو بن عبسة ﷺ.

١ ـ إسلام ضماد الأزدي رضي الله عنه :

وفد ضِماد الأزدي إلى مكة وتأثر بدعاوى المشركين عن رسول الله ﷺ، حتى استقر في نفسه أنه مصاب بالجنون، كما يتهمه بذلك زعماء مكة؛ وكان ضماد من أزد شنوءه، وكان يعالج من الجنون، فلما سمع سفهاء مكة يقولون إن محمدًا ﷺ مجنون، فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي.

قال: فلقيه. فقال: يا محمد، إني أرقي من هذه الريح[٣]، وإن الله يشفى على يدي من شاء. فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد».

قال: فقال: أعد علي كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات، قال: فقال: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس البحر[٤]، قال: فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام. قال: فبايعه، فقال رسول الله ﷺ: «وعلى قومك» قال: وعلى قومي.

وعندما قامت دولة الإسلام في المدينة، وكانت سرايا رسول الله تبعث، فمروا على قوم ضماد، فقال صاحب السرية للجيش: هل أصبتم من هؤلاء شيئًا؟ فقال رجل من القوم:

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (١/ ١٢٣).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (١/ ١٢٧، ١٣٧).

(٣) الريح هنا: المراد بها الجنون ومس الجن.

(٤) ناعوس البحر (وفي نسخ أخرى قاموس): معناه وسطه، أو لجته أو قعره الأقصى.

أصبت منهم مِطْهرة، فقال: ردوها. فإن هؤلاء قوم ضِماد[١].

● **دروس وفوائد:**

أ - دعاية قريش، وتشويه شخص الرسول ﷺ، واتهامه بالجنون حمل ضِمادًا على السير للرسول ﷺ من أجل رقيته، فكانت الحرب الإعلامية المكية ضد الرسول ﷺ سببًا في إسلامه، وإسلام قومه.

ب - تتضح صفتا الصبر والحلم في شخص النبي ﷺ، فقد عرض ضِماد على رسول الله ﷺ معالجته، من مرض الجنون، وهذا موقف يثير الغضب، ولكن رسول الله ﷺ استقبل الأمر بحلم وهدوء، مما أثار إعجاب ضِماد، واحترامه لرسول الله ﷺ.

جـ - أهمية هذه المقدمة التي يستفتح بها رسول الله ﷺ بعض خطبه، فقد اشتملت على تعظيم الله وتمجيده، وصرف العبادة له سبحانه؛ ولذلك كان رسول الله ﷺ كثيرًا ما يجعلها بين يدي خطبه ومواعظه.

د - تأثر ضِماد بفصاحة رسول الله ﷺ وقوة بيانه، لأن حديث الرسول ﷺ انبعث من قلب مُلِيءَ إيمانًا ويقينًا وحكمة، فأصبح حديثه يصل إلى القلوب ويجذبها إلى الإيمان.

هـ - في سرعة إسلام ضِماد دليل على أن الإسلام دين الفطرة، وأن النفوس إذا تجردت من الضغوط الداخلية والخارجية، فإنها غالبًا تتأثر وتستجيب، إما بسماع قول مؤثر، أو الإعجاب بسلوك قديم.

و - حرص الرسول ﷺ على انتشار دعوته، حيث رأى في ضِماد صدق إيمانه، وحماسته للإسلام، وقوة اقتناعه به، فدفعه ذلك إلى أخذ البيعة منه لقومه.

ز - وفي هذا بيان واضح لأهمية الدعوة إلى الله تعالى، حيث جعلها النبي ﷺ قرينة الالتزام الشخصي، فقد بايع رسول الله ﷺ على الالتزام بالدين، فلم يكتف رسول الله بذلك، بل أخذ منه البيعة على دعوة قومه إلى الإسلام.

ح - حفظ المعروف، والود لأهل السابقة والفضل «ردوها فإن هؤلاء من قوم ضماد»[٢].

ط - في الحديث بعض الوسائل التربوية التي استعملها النبي ﷺ مع ضماد، كالتأني في الحديث، وأسلوب الحوار، والتوجيه المباشر، وتظهر بعض الصفات في شخصية رسول الله ﷺ كمربٍّ، كالحلم والصبر، والتشجيع على الإكثار من الخيرات.

---

(١) مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (رقم ٨٦٨).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (١/ ١٣٢، ١٣٣)، وانظر: الوحي وتبليغ الرسالة، د. يحيى اليحيى (ص ١١١- ١١٣).

٢ ـ إسلام عمرو بن عَبَسة رضي الله عنه :

قال: عمرو بن عبسة السُّلَمي: كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء، وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخبارًا، فقعدت على راحلتي، فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفيًا، جرَاء عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة، فقلت له: ما أنت؟ قال: «أنا نبي» فقلت: وما نبي؟ قال: «أرسلني الله» فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: «أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء» قلت له: فمن معك على هذا؟ قال: «حر وعبد» قال: ومعه يومئذٍ أبو بكر وبلال ممن آمن به، فقلت: إني متبعك. قال: «إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس؟ ولكن ارجع إلى أهلك، فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني».

قال: فذهبت إلى أهلي، وقدم رسول الله ﷺ المدينة، وكنت في أهلي، فجعلت أتخَبَّر الأخبار، وأسأل الناس حين قدم المدينة، حتى قدم عليَّ نفر من أهل يثرب من أهل المدينة، فقلت: ما فعل هذا الرجل الذي قدم المدينة؟ فقالوا: الناس إليه سراع. وقد أراد قومه قتله، فلم يستطيعوا ذلك. فقدمت المدينة، فدخلت عليه، فقلت: يا رسول الله أتعرفني؟ قال: «نعم. أنت الذي لقيتني بمكة؟».

وذكر بقية الحديث وفيه أنه سأله عن الصلاة والوضوء[1].

دروس وعبر:

أ ـ عمرو بن عبسة كان من الحنفاء المنكرين لعبادة غير الله تعالى في الجاهلية.

ب ـ كانت الحروب الإعلامية الضروس التي شنتها قريش على رسول الله ﷺ سببًا في تتبع عمرو بن عبسة لأخبار الرسول ﷺ.

جـ ـ جرأة وشدة قريش على رسول الله ﷺ، فقد وجده عمرو بن عبسة مستخفيًا وقومه جراء عليه.

د ـ الأدب في الدخول على أهل الفضل والمنزلة، قال عمرو بن عبسة: «فتلطفت حتى دخلت عليه».

هـ ـ الرسالة المحمدية تقوم على ركيزتين: حق الله، وحق الخلق، قال ﷺ: «أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان» وفي هذا دليل على أهمية صلة الأرحام، حيث كان هذا الخلق العظيم ألصق ما يكون بدعوة الإسلام، مع اقترانه بالدعوة إلى التوحيد، وقد ظهر في هذا البيان الهجوم على الأوثان بقوة، مع أنها كانت أقدس شيء عند العرب، وفي هذا دلالة

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين (رقم ٨٣٢).

على أهمية إزالة معالم الجاهلية، وأن دعوة التوحيد لا تستقر ولا تنتشر، إلا بزوال هذه المعالم.

و - وفي اهتمام النبي ﷺ المبكر بإزالة الأوثان، مع عدم قدرته على تنفيذ ذلك في ذلك الوقت، دلالة على أن أمور الدين لا يجوز تأخير بيانها للناس، بحجة عدم القدرة على تطبيقها، فالذين يبينون للناس من أمور الدين ما يستطيعون تطبيقه بسهولة وأمن، ويحجمون عن بيان أمور الدين التي يحتاج تطبيقها إلى شيء من المواجهة، والجهاد، هؤلاء دعوتهم ناقصة، ولم يقتدوا برسول الله ﷺ الذي واجه الجاهلية وطغاتها، وهو في قلة من أنصاره، والسيادة في بلده لأعدائه[١].

ز - حرص الرسول ﷺ على أمان صحابته، وتوفير الجو الآمن، والسير بهم إلى بر الأمان وإبعادهم عن التعرض للمضايقات، قال لعمرو بن عبسة: «إنك لا تستطيع يومك هذا...».

ح - تذكر رسول الله ﷺ لأحوال أصحابه وعدم نسيان مواقفهم، قال: «أنت الذي لقيتني بمكة».

ط - لم يكن رسول الله ﷺ ليعطي كل من أسلم قائمة بأسماء أتباعه، فهذا ليس للسائل منه مصلحة، ولا يتعلق به بلاغ، ولذلك لما سأل عمرو بن عبسة عمن تبعه قال: «حر وعبد» وهذه تورية، كما قال ابن كثير، بأن هذا اسم جنس، فَهِمَ منه عمرو أنه اسم عين[٢].

ي - في قوله ﷺ «ارجع إلى أهلك فإذا سمعت بي ظهرت فأتني»، نأخذ منه درسًا في الدعوة؛ أن تكديس المريدين والأعضاء حيث المحنة والإيذاء، ليس هو الأصل، فهذا رسول الله ﷺ يوجه نحو الرجوع إلى الأقوام، وأمر كما نرى بالهجرتين إلى الحبشة، فذلك تخفيف عن المسلمين، وإبعاد عن مواطن الخطر، وستر لقوة المسلمين، وإعطاء فرصة للقائد حتى لا ينشغل، وضمان للسرية، وإفادة للمكان المرسل إليه، وإعداد للمستقبل، وملاحظة لضمان الاستمرار، وتجنب الاستئصال[٣].

وممن أسلم بسبب الحرب الإعلامية ضد الرسول ﷺ الطفيل بن عمرو الدوسي، وجاءت قصته مفصلة في كتب السيرة، ويرى الدكتور أكرم ضياء العمري، أنه لم يثبت منها إلا أنه دعا رسول الله ﷺ للالتجاء إلى حصن دوس المنيع، فأبى رسول الله ذلك[٤]، وأشارت رواية

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (١/١٠٩).

(٢) انظر: الوحي وتبليغ الرسالة (ص ١٠٦، ١٠٩).

(٣) انظر: الأساس في السنة، سعيد حوى (١/١٢٦).

(٤) صحيح مسلم (١/١٠٩).

صحيحة إلى أن الطفيل دعا قومه إلى الإسلام ولقي منهم صدودًا، حتى طلب الطفيل من رسول الله ﷺ أن يدعو عليهم، لكن رسول الله ﷺ دعا لهم بالهداية[١]. وكان الرسول آنئذٍ بالمدينة المنورة[٢].

٣ ـ إسلام الحصين والد عمران رضي الله عنه :

جاءت قريش إلى الحصين ـ وكانت تعظمه ـ فقالوا له: كلم لنا هذا الرجل فإنه يذكر آلهتنا، ويسبهم، فجاءوا معه حتى جلسوا قريبًا من باب النبي ﷺ فقال: «أوسعوا للشيخ». وعمران وأصحابه متوافرون، فقال حصين: ما هذا الذي بلغنا عنك، أنك تشتم آلهتنا، وتذكرهم، وقد كان أبوك حصينة[٣] وخيرًا؟ فقال: «يا حصين، إن أبي وأباك في النار، يا حصين، كم تعبد من إله»؟ قال: سبعًا في الأرض، وواحدًا في السماء. فقال: «فإذا أصابك الضر من تدعو»؟ قال: الذي في السماء. قال: «فإذا هلك المال من تدعو؟» قال: الذي في السماء. قال: «فيستجيب لك وحده، وتشركهم معه، أرضيته في الشكر أم تخاف أن يغلب عليك؟» قال: ولا واحدة من هاتين. قال: وعلمت أني لم أكلم مثله. قال: «ياحصين، أسلم تسلم». قال: إن لي قومًا وعشيرة، فماذا أقول؟ قال: «قل: اللهم أستهديك لأرشد أمري، وزدني علمًا ينفعني». فقالها حصين فلم يقم حتى أسلم. فقام إليه عمران فقبل رأسه، ويديه، ورجليه، فلما رأى ذلك النبي ﷺ بكى، وقال: «بكيت من صنيع عمران، دخل حصين وهو كافر، فلم يقم إليه عمران، ولم يلتفت ناحيته، فلما أسلم قضى حقه، فدخلني من ذلك الرقة». فلما أراد حصين أن يخرج قال لأصحابه: «قوموا فشيعوه إلى منزله» فلما خرج من سدة الباب رأته قريش، فقالوا: صبأ وتفرقوا عنه»[٤].

ولعل الذي حدا بالحصين والد عمران أن يسلم بهذه السرعة، سلامة فطرته وحسن استعداده من ناحية، وقوة حجة الرسول ﷺ وسلامة منطقه من ناحية أخرى[٥].

ونلاحظ أن رسول الله ﷺ استخدم أسلوب الحوار مع الحصين رضي الله عنه ، لغرس معاني التوحيد في نفسه، ونسف العقائد الباطلة التي كان يعتقدها.

٤ ـ إسلام أبي ذر رضي الله عنه :

كان أبو ذر رضي الله عنه منكرًا لحال الجاهلية، ويأبى عبادة الأصنام، وينكر على من يشرك بالله،

---

(١) صحيح البخاري، فتح الباري (٦/ ١٠٧).

(٢) السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٧٦)، انظر: السيرة النبوية الصحيحة، د. العمري (١/ ١٤٦).

(٣) حصينة: يعني عاقلاً متحصنًا بدين آبائه وأجداده ومعتقداتهم. انظر: النهاية لابن الأثير (١/ ٢٣٤).

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (١/ ٣٣٧) وعنه نقل الشيخ محمد يوسف في: حياة الصحابة (١/ ٧٥، ٧٦).

(٥) انظر: فقه الدعوة الفردية، د. السيد محمد نوح (ص ١٠٤).

وكان يصلي للَّه قبل إسلامه بثلاث سنوات، دون أن يخص قبلة بعينها بالتوجه، ويظهر أنه كان على نهج الأحناف، ولما سمع بالنبي ﷺ قدم إلى مكة، وكره أن يسأل عنه، حتى أدركه الليل، فاضطجع فرآه علي رضي الله عنه، فعرف أنه غريب، فاستضافه ولم يسأله عن شيء، ثم غادره صباحًا إلى المسجد الحرام، فمكث حتى أمسى، فرآه علي فاستضافه لليلة ثانية، وحدث مثل ذلك الليلة الثالثة، ثم سأله عن سبب قدومه، فلما استوثق منه أبو ذر أخبره بأنه يريد مقابلة الرسول ﷺ، فقال له علي: فإنه حق، وهو رسول الله، فإذا أصبحت فاتّبعني، فإني إن رأيتُ شيئًا أخاف عليك قمت كأني أريق الماء، فإن مضيت فاتبعني، فتبعه وقابل الرسول ﷺ واستمع إلى قوله، فأسلم، فقال له النبي ﷺ: «ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري». فقال: والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانَيْهم، فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وثار القوم حتى أضجعوه، فأتى العباس بن عبد المطلب، فحذرهم من انتقام غفار والتعرض لتجارتهم، التي تمر بديارهم إلى الشام، فأنقذه منهم[١]، وكان أبو ذر قبل مجيئه قد أرسل أخاه، ليعلم له علم النبي ﷺ، ويسمع من قوله ثم يأتيه، فانطلق الأخ حتى قدمه، وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر، فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلامًا ما هو بالشعر. فقال: ما شفيتني[٢] مما أردت[٣]، وعزم على الذهاب بنفسه لرسول الله ﷺ، فقال أخوه له: «وكن على حذر من أهل مكة فإنهم قد شَنِفُوا له وتجهموا»[٤].

● دروس وعبر وفوائد:

أ - شيوع ذكر رسول الله ﷺ بين القبائل، وأكثر من ساهم في ذلك مشركو قريش، بما اتخذوه من منهج التحذير والتشويه لرسول الله ﷺ، ولما جاء به، حتى وصل ذكره قبيلة غفار.

ب - تميز أبي ذر بأنه رجل مستقل في رأيه، لا تؤثر عليه الإشاعات، ولا تستفزه الدعايات، فيقبل كل ما تنشره قريش، ولذلك أرسل أخاه يستوثق له من خبر رسول الله ﷺ بعيدًا عن التأثيرات الإعلامية.

جـ - شدة اهتمام أبي ذر بأمر الرسول ﷺ: فلم يكتف بالمعلومات العامة التي جاء بها أخوه أنيس، بل أراد أن يقف على الحقيقة بعينها؛ حيث إن مجال البحث ليس عن رجل يأمر بالخير فحسب، وإنما عن رجل يذكر أنه نبي، ولذلك تحمل المشاق، والمتاعب وشظف العيش، والغربة عن الأهل والوطن في سبيل الحق، فأبو ذر ترك أهله واكتفى من الزاد

---

(١) صحيح البخاري (فتح الباري) (٧/ ١٧٣).

(٢) ما شفيتني مما أردت: ما بلغتني غرضي وأزلت عني همي.

(٣) صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي (ص ٨٣).

(٤) صحيح مسلم [٤/ ١٩٢٣- ورقمه (٢٤٧٣)] وشنفوا له: أي أبغضوه. وانظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ١٤٥).

بجراب، وارتحل إلى مكة، لمعرفة أمر النبوة[١].

د ـ التأني والتريث في الحصول على المعلومة: حيث تأنى أبو ذر ﷺ، لما يعرفه من كراهية قريش لكل من يخاطب الرسول ﷺ، وهذا التأني تصرف أمني، تقتضيه حساسية الموقف، فلو سأل عنه، لعلمت به قريش، وبالتالي قد يتعرض للأذى والطرد، ويخسر الوصول إلى هدفه، الذي من أجله ترك مضارب قومه، وتحمل في سبيله مصاعب ومشاق السفر.

هـ ـ الاحتياط والحذر قبل النطق بالمعلومة: حين سأل علي ﷺ أبا ذر ﷺ عن أمره وسبب مجيئه إلى مكة، لم يخبره بالرغم من أنه استضافه ثلاثة أيام إمعانًا في الحذر، فاشترط عليه قبل أن يخبره أن يكتم عنه، وفي الوقت ذاته أن يرشده، فهذا غاية في الاحتياط، وتم ما أراده.

و ـ التغطية الأمنية للتحرك: تم الاتفاق بين علي وأبي ذر ﷺ على إشارة، أو حركة معينة، كأنه يصلح نعله، أو كأنه يريق الماء، وذلك عندما يرى علي ﷺ من يترصدهما، أو يراقبهما، فهذه تغطية أمنية لتحركهم تجاه المقر (دار الأرقم)، هذا إلى جانب أن أبا ذر كان يسير على مسافة من علي، فيُعد هذا الموقف احتياطًا وتحسبًا لكل طارىء، قد يحدث أثناء التحرك.

ز ـ هذه الإشارات الأمنية العابرة تدل على تفوق الصحابة ﷺ في الجوانب الأمنية، وعلى مدى توافر الحس الأمني لديهم، وتغلغله في نفوسهم، حتى أصبح سمة مميزة لكل تصرف من تصرفاتهم الخاصة والعامة، فأتت تحركاتهم منظمة، ومدروسة، فما أحوجنا لمثل هذا الحس، الذي كان عند الصحابة، بعد أن أصبح للأمن في عصرنا أهمية بالغة في زوال واستمرار الحضارات[٢]، وأصبحت له مدارسه الخاصة، وتقنياته المتقدمة، وأساليبه ووسائله المتطورة، وأجهزته المستقلة، وميزانياته ذات الأرقام الكبيرة، وأضحت المعلومات عامة، والمعلومات الأمنية خاصة، تباع بأغلى الأثمان، ويضحى في سبيل الحصول عليها بالنفس إذا لزم الأمر. وما دام الأمر كذلك، فعلى المسلمين الاهتمام بالناحية الأمنية، حتى لا تصبح قضايانا مستباحة للأعداء، وأسرارنا في متناول أيديهم[٣].

ح ـ صدق أبي ذر في البحث عن الحق، ورجاحة عقله وقوة فهمه: فقد أسلم بعد عرض الإسلام عليه.

ط ـ حرص رسول الله ﷺ، واهتمامه بأمن أصحابه وسلامتهم: حيث أمر أبا ذر بالرجوع إلى أهله، وكتمان أمره حتى يظهره الله.

---

(١) انظر: الوحي وتبليغ الرسالة، د. يحيى اليحيى (ص ٩١ـ ٩٣).

(٢) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية، د. إبراهيم العلي (ص ٥٨، ٥٩).

(٣) انظر: دروس في الكتمان، محمود شيت خطاب (ص ٩).

ي - شجاعة أبي ذر وقوته في الحق: فقد جهر بإسلامه في نوادي قريش، ومجتمعاتهم تحديًا لهم وإظهارًا للحق[١]، وكأنه فهم أن أمر النبي ﷺ بالكتمان ليس على الإيجاب، بل على سبيل الشفقة عليه، فأعلمه بأنه به قوة على ذلك، ولهذا أقره النبي ﷺ على ذلك، ويؤخذ منه جواز قول الحق عند من يخشى منه الأذية لمن قاله، وإن كان السكوت جائزًا، والتحقيق أن ذلك مختلف باختلاف الأحوال والمقاصد، وبحسب ذلك يترتب وجود الأجر وعدمه[٢].

ك - كان موقف أبي ذر مفيدًا للدعوة، وساهم في مقاومة الحرب النفسية التي شنتها قريش ضد الرسول ﷺ، وكانت ضربة معنوية أصابت كفار مكة في الصميم، بسبب شجاعة ورجولة أبي ذر، وقدرته على التحمل، فقد سالت الدماء من جسده ثم عاد مرة أخرى للصدع بالشهادة.

ل - مدافعة العباس عن المسلمين، وسعيه لتخليص أبي ذر من أذى قريش، دليل على تعاطفه مع المسلمين، وكان أسلوبه في رد الاعتداء يدل على خبرته بنفوس كفار مكة، حيث حذرهم من الأخطار التي ستواجهها تجارتهم، عندما تمر بديار غِفار[٣].

م - امتثل أبو ذر للترتيبات الأمنية، التي اتخذها رسول الله ﷺ في مكة، فمع تعلق أبي ذر بالرسول ﷺ، وحبه له وحرصه على لقائه، إلا أنه امتثل أمر رسول الله ﷺ في مغادرة مكة إلى قومه، واهتم بصلاح وهداية الأهل، ودعوتهم للإسلام، فبدأ بأخيه، وأمه وقومه.

ن - أثر أبي ذر الدعوي على قومه وقدرته على هدايتهم وإقناعهم بالإسلام، ومع ذلك فلا يصلح للإمارة، روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله ألا تستعملني؟، قال: فضرب بيده على مَنْكِبي ثم قال: «يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها»[٤]، فكل شخص مجاله الذي سخره الله فيه، وميدانه الذي يقوم بواجبه فيه، فلا يعني أنه نجح في الدعوة وإقناع الناس أنه يصلح لكل شيء.

س - تفويض أبي ذر الإمامة إلى سيد غفار (أيماء بن رَحَضة)، ومع تقدم أبي ذر عليه في الإسلام وعلو منزلته، يدل على مهارة إدارية، وهي عدم جمع كل الأعمال في يده، وتقدير الناس وإنزالهم منازلهم[٥].

---

(١) انظر: الوحي وتبليغ الرسالة (ص ٩٥).

(٢) انظر: فتح الباري (٧/ ١٣٤).

(٣) انظر: الوحي وتبليغ الرسالة (ص ٩٤، ٩٥).

(٤) مسلم، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة (٣/ ١٤٥٧ رقم ١٨٢٥).

(٥) انظر: الوحي وتبليغ الرسالة (ص ١٠٠).

ع - نجاح أبي ذر الباهر في الدعوة: حيث أسلمت نصف غفار، وأسلم نصفها الثاني بعد الهجرة[١].

لقد فشلت محاولات التشويه والحرب الإعلامية، والحجر الفكري الذي كان الكفار يمارسونه على الدعوة الإسلامية في بداية عهدها، لأن صوت رسول الله ﷺ كان أقوى من أصواتهم، ووسائله في التبليغ، كانت أبلغ من وسائلهم، وثباته على مبدئه السامي، كان أعلى بكثير مما كان يتوقعه أعداؤه، فالرسول ﷺ لم يجلس في بيته، ولم ينزو في زاوية من زوايا المسجد الحرام، ليستخفي بدعوته، وليقي نفسه من سهام أعدائه المسمومة، بل إنه غامر بنفسه، فكان يخرج في مضارب العرب، قبل أن يفدوا إلى مكة، وكان يجهر بتلاوة القرآن في المسجد الحرام؛ ليسمع من كان في قلبه بقية من حياة، وأثارة من حرية وإباء، فيتسرب نور الهدى إلى مجامع لبه، وسويداء قلبه[٢]، وكان من هؤلاء ضماد الأزدي، وعمرو بن عَبَسة، وأبو ذر الغفاري، والطفيل بن عمرو الدوسي، وحصين والد عمران بن الحصين ﷺ، وهذا دليل قاطع، وبرهان ساطع على فشل حملات التشويه التي شنتها قريش ضد رسول الله ﷺ، فعلينا أن نعتبر ونستفيد من الدروس والعبر.

ثالثًا: ما تعرض له رسول الله ﷺ من الأذى والتعذيب:

لم يفتر المشركون عن أذى رسول الله ﷺ، منذ أن صدع بدعوته إلى أن خرج من بين أظهرهم، وأظهره الله عليهم، ويدل على ما مبلغ هذا الأذى تلك الآيات الكثيرة التي كانت تتنزل عليه في هذه الفترة تأمره بالصبر، وتدله على وسائله، وتنهاه عن الحزن، وتضرب له أمثلة من واقع إخوانه المرسلين، مثل قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المُزمّل: الآية ١٠].

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: الآية ٢٤].

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النَّمل: الآية ٧٠].

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فُصّلَت: الآية ٤٣].

وهذه أمثلة تدل على ما تعرض له ﷺ من الإيذاء:

١ - **قال أبو جهل**: هل يعفر محمد وجهه[٣] بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم. فقال: واللات والعزى، لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرنَّ وجهه في التراب. قال:

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ٤٥).

(٢) التاريخ الإسلامي للحميدي (١/ ١٤٤).

(٣) يعفر وجهه: أي يسجد ويلصق وجه بالعَفر وهو التراب.

فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فَجِئَهم[١] منه إلا وهو يَنْكُص على عقبيه[٢]، ويتقي بيديه. قال: فقيل له: مالك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار، وهولًا وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا»[٣].

وفي حديث ابن عباس قال: «كان النبي يصلي فجاء أبو جهل: فقال: ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ فانصرف النبي ﷺ فزبره[٤]، فقال أبو جهل: إنك لتعلم ما بها ناد أكثرُ مني، فأنزل الله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ [العَلق: ١٧ ـ ١٨] فقال ابن عباس: فوالله لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله»[٥].

٢ ـ **وعن ابن مسعود:** بينما رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، وجمع من قريش في مجالسهم إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائي؟ أيكم يقوم إلى جَزُور آل فلان، فَيعْمد إلى فرثها ودمها وسَلاها، فيجيء به ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه؟ فانبعث أشقاهم، فلما سجد رسول الله ﷺ وضعه بين كتفيه، وثبت النبي ﷺ ساجدًا، فضحكوا حتى مال بعضهم إلى بعض من الضحك، فانطلق منطلق إلى فاطمة ـ وهي جويرية ـ فأقبلت تسعى، وثبت النبي ﷺ ساجدًا حتى ألقته عنه، وأقبلت عليهم تسبهم، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة، قال: «اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش». ثم سمَّى: «اللَّهم عليك بعمرو بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعُمارة بن الوليد»، قال ابن مسعود: فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر، ثم سُحبوا إلى القليب[٦] ـ قليب بدر ـ ثم قال رسول الله ﷺ: «وأُتبع أصحاب القليب لعنةً»[٧].

وقد بينت الروايات الصحيحة الأخرى، أن الذي رمى الرفث عليه هو عقبة بن أبي معيط، وأن الذي حرضه هو أبو جهل[٨]، وأن المشركين تأثروا لدعوة الرسول، وشق عليهم الأمر، لأنهم يرون أن الدعوة بمكة مستجابة[٩].

---

(١) فَجِئَهم بكسر الجيم، ويقال أيضًا فَجَأَهم: بغتهم.

(٢) عقبيه: رجع يمشي إلى الوراء.

(٣) مسلم، كتاب صفات المنافقين، باب قوله: «إن الإنسان ليطغى» (رقم ٢٧٩٧).

(٤) زبره: نهره.

(٥) الترمذي (رقم ٣٣٤٩)، حسن صحيح غريب.

(٦) القليب: البئر المفتوحة.

(٧) البخاري واللفظ له (برقم ٥٢٠)، (فتح الباري ١/ ٥٩٤)، مسلم (٣/ ١٤١٨ـ ١٤٢٠) ورقمه (١٠٧ـ ١٧٩٤).

(٨) صحيح مسلم (٣/ ١٤٢٠).

(٩) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ١٤٩).

٣ ـ اجتماع الملأ من قريش وضربهم الرسول ﷺ: اجتمع أشراف قريش يومًا في الحجر، فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قطُّ، سفَّه أحلامنا، وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم! فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسول الله ﷺ فوثبوا وثبة رجل واحد، وأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا ـ لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم ـ فيقول: «نعم، أنا الذي أقول ذلك»، ثم أخذ رجل منهم بمجمع ردائه، فقام أبو بكر رضي الله عنه دونه، وهو يبكي، ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله[١].

٤ ـ كان أبو لهب عم النبي ﷺ من أشد الناس عداوة له، وكذلك كانت امرأته أم جميل، من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ، وكانت تسعى بالإفساد بينه وبين الناس بالنميمة، وتضع الشوك في طريقه، والقذر على بابه، فلا عجب أن نزل فيهم قول الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ④ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [سورة المَسَد: ١ ـ ٥]، فحين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصديق، وفي يدها فهر من حجارة، فلما وقفت عليهما قالت: يا أبا بكر، أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه! ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله أما تراها رأتك؟ فقال: «لقد أخذ الله ببصرها عني»، وكانت تنشد: مذ مم أبينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا، وكان رسول الله ﷺ يفرح لأن المشركين يسبون مذممًا يقول: «ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم، يشتمون مُذَمَّمًا، ويلعنون مُذَمَّمًا وأنا محمد»[٢].

وقد بلغ من أمر أبي لهب أنه كان يتبع رسول الله ﷺ في الأسواق والمجامع، ومواسم الحج ويكذبه[٣].

هذا بعض ما لاقاه رسول الله ﷺ من أذية المشركين، وقد ختم المشركون أذاهم لرسول الله ﷺ بمحاولة قتله في أواخر المرحلة المكية[٤]، وكان رسول الله ﷺ يذكر ما لاقاه من أذى قريش قبل أن ينال الأذى أحدًا من أتباعه، يقول: «لقد أُخفت في الله ﷻ وما يُخاف أحد، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، ولقد أتت عليّ ثلاثون من بين يوم وليلة ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال»[٥].

---

(١) صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي من طرق أخرى (ص ٩٦).

(٢) البخاري (ورقمه ٣٥٣٣)، (فتح الباري ٦/ ٥٥٤ـ ٥٥٥).

(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٢٩٣).

(٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٥٣).

(٥) سنن الترمذي (٤/ ٦٤٥) ورقمه (٢٤٧٢)، صححه الألباني ـ صحيح الجامع (٥٠٠١).

ومع ما له ﷺ من عظيم القدر، ومنتهى الشرف، إلا أنه قد حظي من البلاء بالحمل الثقيل، والعناء الطويل، منذ أول يوم صدع فيه بالدعوة، ولقد لقي النبي ﷺ من سفهاء قريش أذى كثيرًا، فكان إذا مر على مجالسهم بمكة استهزأوا به، وقالوا ساخرين: هذا ابن أبي كبشة[١]، يُكلم من السماء، وكان أحدهم يمر على الرسول ﷺ، فيقول له ساخرًا: أما كُلِّمت اليوم من السماء[٢].

ولم يقتصر الأمر على مجرد السخرية والاستهزاء، والإيذاء النفسي، بل تعداه إلى الإيذاء البدني، بل قد وصل الأمر إلى أن يبصق عدو الله أمية بن خلف في وجه النبي ﷺ[٣]، وحتى بعد هجرته عليه السلام إلى المدينة لم تتوقف حدة الابتلاء والأذى، أخذت خطًا جديدًا، بظهور أعداء جدد، فبعد أن كانت العداوة تكاد تكون مقصورة على قريش بمكة، صار له ﷺ أعداء من المنافقين المجاورين بالمدينة، ومن اليهود والفرس والروم، وأحلافهم، وبعد أن كان الأذى بمكة شتمًا وسخرية، وحصارًا، وضربًا، صار مواجهة عسكرية مسلحة، حامية الوطيس، فيها كر وفر، وضرب وطعن؛ فكان ذلك بلاء في الأموال والأنفس على السواء[٤]، وهكذا كانت فترة رسالته ﷺ وحياته سلسلة متصلة من المحن والابتلاء، فما وهن لما أصابه في سبيل الله، بل صبر، واحتسب حتى لقي ربه[٥].

لقد واجه الرسول ﷺ من الفتن والأذى والمحن ما لا يخطر على بال، في مواقف متعددة، وكان ذلك على قدر الرسالة التي حُملها، ولذلك استحق المقام المحمود، والمنزلة الرفيعة عند ربه، وقد صبر على ما أصابه، إشفاقًا على قومه أن يصيبهم مثل ما أصاب الأمم الماضية من العذاب، وليكون قدوة للدعاة والمصلحين[٦]. فإذا كان الاعتداء الأثيم، قد نال رسول الله ﷺ، فلم يعد هناك أحد ـ لكرامته ـ أكبر من الابتلاء والمحنة، وتلك سنة الله في الدعوات، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل، فالأمثل، يُبتلى الرجل على حَسَب دينه، فإن كان في دينه صُلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»[٧].

---

(١) والد الرسول ﷺ من الرضاعة.

(٢) الروض الأنف (٢/ ٣٣) وما بعدها.

(٣) المصدر السابق نفسه (٢/ ٤٨).

(٤) زاد اليقين لأبي شنب (ص ١٣٧).

(٥) التمكين للأمة الإسلامية (ص ٢٤٣).

(٦) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي، د. سليمان السويكت (ص ١٩٧).

(٧) ابن ماجه، باب الصبر على البلاء (رقم ٤٠٢٣). وقال الألباني: حسن صحيح (برقم ٤٠٩٥) في صحيح سنن ابن ماجه.

رابعًا: ما تعرض له أصحاب رسول الله ﷺ من الأذى والتعذيب:

١ ـ ما لاقاه أبو بكر الصديق رضي الله عنه :

تحمل الصحابة رضوان الله عليهم من البلاء العظيم ما تنوء به الرواسي الشامخات، وبذلوا أموالهم ودماءهم في سبيل الله، وبلغ بهم الجهد ما شاء الله أن يبلغ، ولم يسلم أشراف المسلمين من هذا الابتلاء، فلقد أوذي أبو بكر رضي الله عنه ، وحُثي على رأسه التراب، وضُرب في المسجد الحرام بالنعال، حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وحُمل إلى بيته في ثوبه، وهو ما بين الحياة والموت[1]، فقد روت عائشة رضي الله عنها ـ أنه لَمَّا اجتمع أصحاب النبي ﷺ، وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً، ألحّ أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ في الظهور، فقال: «يا أبا بكر إنا قليل» فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ وتفرق المسلمون في نواحي المسجد، كل رجل في عشيرته، وقام أبو بكر في الناس خطيبًا ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلى الله تعالى، وإلى رسوله ﷺ، وثار المشركون على أبي بكر، وعلى المسلمين، فضربوهم في نواحي المسجد ضربًا شديدًا، وَوُطِىء أبو بكر، وضرب ضربًا شديدًا، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة، فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويُحرِّفهما لوجهه، ونزا على بطن أبي بكر رضي الله عنه ، حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وجاءت بنو تيم يتعادون فأجلت المشركين عن أبي بكر، وحَمَلتْ بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله، ولا يشكون في موته، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد، وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة، فرجعوا إلى أبي بكر فجعل أبو قحافة (والده) وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب، فتكلم آخر النهار، فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فمسَّوا منه بألسنتهم وعذلوه، وقالوا لأمه، أم الخير: انظري أن تطعميه شيئًا، أو تسقيه إياه، فلما خلت به ألحت عليه، وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: والله مالي علم بصاحبك فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب، فاسأليها عنه؛ فخرجت حتى جاءت أم جميل، فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله، فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك، قالت: نعم، فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعًا دَنفًا، فدنت أم جميل، وأعلنت بالصياح، وقالت: والله إن قومًا نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، إنني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم، قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: هذه أمك تسمع، قال: فلا شيء عليك منها. قالت: سالم صالح. قال: أين هو؟. قالت: في دار الأرقم، قال: فإن لله عليَّ أن لا أذوق طعامًا ولا أشرب شرابًا أو آتي رسول الله ﷺ، فأمهلتا حتى إذا هدأت الرِّجل وسكن الناس، خرجتا به يتكىء عليهما، حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ فقال: فأكب عليه رسول الله ﷺ فقبله، وأكب عليه المسلمون، ورقّ له رسول الله ﷺ رقة شديدة، فقال أبو بكر: بأبي وأمي يا رسول الله، ليس

---

(١) التمكين للأمة الإسلامية (ص ٢٤٣).

بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمي برة بولدها، وأنت مبارك، فادعها إلى الله، وادع الله لها، عسى الله أن يستنقذها بك من النار، قال: فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله فأسلمت(١).

دروس وعبر وفوائد:

أ - حِرْصُ أبي بكر ﷺ على إعلان الإسلام، وإظهاره أمام الكفار، وهذا يدل على قوة إيمانه وشجاعته، وقد تَحَمَّل الأذى العظيم، حتى إن قومه كانوا لا يشكون في موته.

ب - مدى الحب الذي كان يكنه أبو بكر لرسول الله ﷺ، حيث إنه - وهو في تلك الحال الحرجة - يسأل عنه، ويُلِحُّ إلحاحًا عجيبًا في السؤال، ثم يحلف أن لا يأكل، ولا يشرب، حتى يراه، كيف يتم ذلك، وهو لا يستطيع المشي بل النهوض؟ ولكنه الحب الذي في الله، والعزائم التي تقهر الصعاب، وكل مصاب في سبيل الله، ومن أجل رسوله ﷺ هين ويسير.

جـ - إن العصبية القبلية، كان لها في ذلك الحين دور في توجيه الأحداث، والتعامل مع الأفراد، حتى مع اختلاف العقيدة، فهذه قبيلة أبي بكر تهدد بقتل عتبة إن مات أبو بكر(٢).

د - الحس الأمني لأم جميل - رضي الله عنها - فقد برز في عدة تصرفات لعل من أهمها:

*** إخفاء الشخصية والمعلومة عن طريق الإنكار:**

عندما سألت أمُّ الخير أمَّ جميل عن مكان الرسول ﷺ، أنكرت أنها تعرف أبا بكر، ومحمد بن عبد الله، فهذا تصرف حذر سليم، إذ لم تكن أم الخير ساعتئذٍ مسلمة، وأم جميل كانت تخفي إسلامها، ولا تود أن تعلم به أم الخير، وفي الوقت ذاته أخفت عنها مكان الرسول ﷺ مخافة أن تكون عينًا لقريش(٣).

*** استغلال الموقف لإيصال المعلومة:**

فأم جميل أرادت أن تقوم بإيصال المعلومة بنفسها لأبي بكر ﷺ، وفي الوقت ذاته لم تظهر ذلك لأم الخير، إمعانًا في السرية والكتمان، فاستغلت الموقف لمصلحتها قائلة: «إن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك فعلت» وقد عرضت عليها هذا الطلب بطريقة تنم عن الذكاء، وحسن التصرف، فقولها: «إن كنت تحبين» - وهي أمه - وقولها: «إلى ابنك» ولم تقل لها إلى أبي بكر، كل ذلك يحرك في أم الخير عاطفة الأمومة، فغالبًا ما تخضع لهذا

(١) السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٤٣٩- ٤٤١)، البداية والنهاية (٣/ ٣٠).

(٢) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي (ص ٧٩).

(٣) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية (ص ٥٠).

الطلب، وهذا ما تم بالفعل، حيث أجابتها بقولها: «نعم» وبالتالي نجحت أم جميل في إيصال المعلومة بنفسها.

* استغلال الموقف في كسب عطف أم أبي بكر:

يبدو أن أم جميل حاولت أن تكسب عطف أم الخير، فاستغلت وضع أبي بكر رضي الله عنه، الذي يظهر فيه صريعًا دَنِفًا، فأعلنت بالصياح، وسَبَّتْ من قام بهذا الفعل بقولها: «إن قومًا نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر» فلا شك أن هذا الموقف من أم جميل يشفي بعض غليل أم الخير، من الذين فعلوا ذلك بابنها، فقد تُكِنّ شيئًا من الحب لأم جميل، وبهذا تكون أم جميل كسبت عطف أم الخير، وثقتها، الأمر الذي يسهل مهمة أم جميل في إيصال المعلومة إلى أبي بكر رضي الله عنه [١].

* الاحتياط والتأني قبل النطق بالمعلومة:

لقد كانت أم جميل في غاية الحيطة والحذر، من أن تتسرب هذه المعلومة الخطيرة، عن مكان قائد الدعوة، فهي لم تطمئن بعد إلى أم الخير، لأنها ما زالت مشركة آنذاك، لم تأمن جانبها، لذا ترددت عندما سألها أبو بكر رضي الله عنه، عن حال رسول الله ﷺ فقالت له: هذه أمك تسمع؟ فقال لها: لا شيء عليك منها، فأخبرته ساعتها بأن الرسول ﷺ سالم صالح[٢]، وزيادة في الحيطة والحذر والتكتم، لم تخبره بمكانه إلا بعد أن سألها عنه قائلاً: أين هو؟ فأجابته: في دار الأرقم.

* تخير الوقت المناسب لتنفيذ المهمة:

حين طلب أبو بكر رضي الله عنه الذهاب إلى دار الأرقم، لم تستجب له أم جميل على الفور، بل تأخرت عن الاستجابة، حتى إذا هدأت الرِّجل وسكن الناس، خرجت به ومعها أمه يتكىء عليهما، فهذا هو أنسب وقت للتحرك وتنفيذ هذه المهمة، حيث تنعدم الرقابة من قبل أعداء الدعوة، مما يقلل من فرص كشفها، وقد نفذت المهمة بالفعل دون أن يشعر بها الأعداء، حتى دخلت أم جميل وأم الخير بصحبة أبي بكر إلى دار الأرقم، وهذا يؤكد أن الوقت المختار كان أنسب الأوقات[٣].

د - قانون المنحة بعد المحنة، حيث أسلمت أُمُّ الخير أم أبي بكر، بسبب رغبة الصديق في إدخال أمه إلى حظيرة الإسلام، وطلبه من الرسول ﷺ الدعاء لها، لما رأى من برّها به،

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية (ص ٥١).

(٣) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجواب الحذر والحماية (ص ٥٠- ٥٢)، وقد استفدت من هذا الكتاب في هذه الدروس الأمنية.

وقد كان ﷺ حريصًا على هداية الناس الآخرين، فكيف بأقرب الناس إليه[١].

هـ - إن من أكثر الصحابة الذين تعرضوا لمحنة الأذى والفتنة بعد رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق ﷺ، نظرًا لصحبته الخاصة له، والتصاقه به في المواطن التي كان يتعرض فيها للأذى من قومه، فينبري الصديق مدافعًا عنه وفاديًا إياه بنفسه، فيصيبه من أذى القوم وسفههم، هذا مع أن الصديق يعتبر من كبار رجال قريش المعروفين بالعقل والإحسان[٢].

٢ - بلال ﷺ :

تضاعف أذى المشركين لرسول الله ﷺ ولأصحابه، حتى وصل إلى ذروة العنف، وخاصة في معاملة المستضعفين من المسلمين، فنكلت بهم لتفتنهم عن عقيدتهم وإسلامهم، ولتجعلهم عبرة لغيرهم، ولتنفس عن حقدها، وغضبها بما تصبه عليهم من العذاب.

قال عبد الله بن مسعود ﷺ : «أول من أظهر الإسلام سبعة، رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد، فأما رسول الله ﷺ، فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدراع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم إنسان إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلال، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأعطوه الولدان، وأخذوا يطوفون به شعاب مكة وهو يقول: أحد أحد»[٣] لم يكن لبلال ﷺ ظهر يسنده، ولا عشيرة تحميه، ولا سيوف تذود عنه، ومثل هذا الإنسان في المجتمع الجاهلي المكي، يعادل رقمًا من الأرقام، فليس له دور في الحياة إلا أن يخدم ويطيع، ويباع ويشترى كالسائمة، أما أن يكون له رأي، أو يكون صاحب فكر، أو صاحب دعوة، أو صاحب قضية، فهذه جريمة شنعاء في المجتمع الجاهلي المكي، تهز أركانه وتزلزل أقدامه، ولكن الدعوة الجديدة التي سارع لها الفتيان، وهم يتحدون تقاليد وأعراف آبائهم الكبار، لامست قلب هذا العبد المرمي المنسي، فأخرجته إنساناً جديدًا على الوجود[٤]، فقد تفجرت معاني الإيمان في أعماقه بعد أن آمن بهذا الدين، وانضم إلى محمد ﷺ وإخوانه في موكب الإيمان العظيم، وهاهو الآن يتعرض للتعذيب من أجل عقيدته ودينه، فصد وزير رسول الله ﷺ الصديق، موقعَ التعذيب، وفاوض أُمية بن خلف، وقال له: «ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ حتى متى! قال: أنت الذي أفسدته فأنقذه مما ترى؛ فقال أبو بكر: أفعل، عندي غلام أسود أجلد منه، وأقوى. على دينك أعطيكه به؛ قال: قد قبلت؛ فقال: هو لك، فأعطاه أبو بكر الصديق ﷺ غلامه ذلك، وأخذه فأعتقه»[٥] وفي رواية:

---

(١) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي (ص ٧٩).

(٢) المصدر نفسه (ص ٧٥).

(٣) انظر: أحمد (١/ ٤٠٤ ورقمه ٣٨٣٢) بإسناد حسن.

(٤) انظر: التربية القيادية (١/ ١٣٦).

(٥) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٩٤).

اشتراه بسبع أواق، أو بأربعين أوقية ذهبًا[١]. ما أصبر بلالاً، وما أصلبه ﷺ، فقد كان صادق الإسلام، طاهر القلب، ولذلك صَلُب، ولم تَلِنْ قناته أمام التحديات، وأمام صنوف العذاب، وكان صبره، وثباته مما يغيظهم ويزيد حنقهم، خاصة أنه كان الرجل الوحيد من ضعفاء المسلمين، الذي ثبت على الإسلام، فلم يوات الكفار فيما يريدون، مرددًا كلمة التوحيد بتحدٍ صارخ، وهانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه[٢].

وبعد كل محنة منحة، فقد تخلص بلال من العذاب والنكال، وتخلص من أسر العبودية، وعاش مع رسول الله ﷺ بقية حياته ملازمًا له، ومات راضيًا عنه، مبشرًا إياه بالجنة، فقد قال ﷺ لبلال: «... فإني سمعت خَشْفَ نعليك بين يدي في الجنة»[٣].

وأما مقامه عند الصحابة، فقد كان عمر ﷺ يقول: «أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا» يعني بلالاً[٤].

وأصبح منهج الصديق في فك رقاب المستضعفين، ضمن الخطة التي تبنتها القيادة الإسلامية لمقاومة التعذيب، الذي نزل بالمستضعفين، فمضى يضع ماله في تحرير رقاب المؤمنين، المنضمين إلى هذا الدين الجديد من الرق:

«... ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب، بلال سابعهم؛ عامر بن فُهيرة شهد بدرًا وأحدًا، وقُتل يوم بئر معونة شهيدًا، وأم عُبيس، وزِنِّيرة وأصيب بصرها حين أعتقها، فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى، فقالت: كذبوا وبيت الله ما تضر اللات والعزى، وما تنفعان، فرَدَّ الله بصرها» وأعتق النَّهْدِية وبنتها، وكانتا لامرأة من بني عبد الدار، فمرَّ بهما، وقد بعثتهما سيدتهما بطحين لها وهي تقول: والله لا أعتقكما أبدًا، فقال أبو بكر ﷺ: حِلّ[٥] يا أم فلان فقالت: حِلّ، أنت أفسدتهما فأعتقهما، قال: فبكم هما؟ قالت: بكذا وكذا، قال: قد أخذتهما، وهما حرتان، أَرْجعا إليها طحينها، قالتا: أَوَ نَفْرُغ منه يا أبا بكر ثم نرده إليها؟ قال: وذلك إن شئتما»[٦].

وهنا وقفة تأمل ترينا كيف سوَّى الإسلام بين الصديق، والجاريتين حتى خاطبتاه، خطاب الند للند، لا خطاب المسود للسيد، وتقبل الصديق على شرفه وجلالته في الجاهلية والإسلام منهما ذلك، مع أن له يدًا عليهما بالعتق، وكيف صقل الإسلام الجاريتين حتى تخلقتا بهذا

---

(١) التربية القيادية (١/ ١٤٠).
(٢) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي، (ص ٩٢).
(٣) صحيح مسلم (٢/ ١٩١٠) رقم الحديث (٢٤٥٨).
(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ٢٣٢) ورجاله ثقات.
(٥) حل: تحللي من يمينك.
(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٩٣).

الخلق الكريم، وكان يمكنهما وقد أعتقتا وتحررتا من الظلم، أن تدعا لها طحينها، يذهب أدراج الرياح، أو يأكله الحيوان والطير، ولكنهما أبتا ـ تفضلاً ـ إلا أن تفرغا منه، وترداه إليها[١].

ومرَ الصديق بجارية بني مؤمل، حي من بني عدي بن كعب، وكانت مسلمة، وعمر بن الخطاب يعذبها، لتترك الإسلام، وهو يومئذ مشرك، وهو يضربها، حتى إذا ملَّ قال: إني أعتذر إليك، إني لم أتركك إلا عن ملالة فتقول: كذلك فعل الله بك، فابتاعها أبو بكر فأعتقها[٢].

هكذا كان واهب الحريات، ومحرر العبيد، شيخ الإسلام الوقور، الذي عرف بين قومه بأنه يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق، لم ينغمس في إثم في جاهليته، أليف مألوف، يسيل قلبه رقة ورحمة على الضعفاء، والأرقاء، أنفق جزءًا كبيرًا من ماله، في شراء العبيد، وأعتقهم لله، وفي الله، قبل أن تنزل التشريعات الإسلامية المحببة في العتق، والواعدة عليه أجزل الثواب[٣].

كان المجتمع المكي يتندر بأبي بكر ﷺ الذي يبذل هذا المال كله لهؤلاء المستضعفين، أما في نظر الصديق، فهؤلاء إخوانه في الدين الجديد، فكل واحد من هؤلاء لا يساوي عنده مشركي الأرض وطغاتها، وبهذه العناصر وغيرها تُبنى دولة التوحيد، وتصنع حضارة الإسلام، الرائدة والرائعة[٤]، ولم يكن الصديق يقصد بعمله هذا محمدة، ولا جاهًا، ولا دنيا، وإنما كان يريد وجه الله ذا الجلال والإكرام، لقد قال له أبوه ذات يوم: «يا بُنَي إني أراك تعتق رقابًا ضعافًا، فلو أنك إذ فعلت أعتقت رجالاً جُلْدًا يمنعونك، ويقومون دونك؟ فقال أبو بكر ﷺ: يا أبت إني إنما أريد ما أريد لله ﷻ» فلا عجب إذا كان الله سبحانه أنزل في شأن الصديق قرآناً يتلى إلى يوم الدين، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾[٥] [الليل: الآيات ٥ ـ ٢١].

كان هذا التكافل بين أفراد الجماعة الإسلامية الأولى قمة من قمم الخير والعطاء، وأصبح

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٣٤٦).
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٩٣).
(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٣٤٥).
(٤) انظر: التربية القيادية (١/ ٣٤٢).
(٥) سيرة ابن هشام (١/ ٣١٩)، تفسير الآلوسي (٣٠/ ١٥٢).

هؤلاء العبيد بالإسلام أصحاب عقيدة وفكرة، يناقشون بها وينافحون عنها، ويجاهدون في سبيلها، وكان إقدام أبي بكر ﷺ على شرائهم ثم إعتاقهم دليلاً على عظمة هذا الدين، ومدى تغلغله في نفسية الصديق ﷺ، وما أحوج المسلمين اليوم أن يُحْيُوا هذا المثل الرفيع، والمشاعر السامية، ليتم التلاحم والتعايش، والتعاضد بين أبناء الأمة، التي يتعرض أبناؤها للإبادة الشاملة من قبل أعداء العقيدة والدين.

٣ ـ عمار بن ياسر وأبوه وأمه ﷺ:

كان والد عمار ياسر من بني عنس من قبائل اليمن، قدم مكة وأخواه الحارث ومالك يطلبون أخًا لهم، فرجع الحارث ومالك إلى اليمن، وأقام ياسر بمكة، وحالف أبا حذيفة بن المغيرة المخزومي[١]، فزوجه أبو حذيفة أمةً له يقال لها سُميَّة بنت خياط، فولدت له عمارًا، فأعتقه أبو حذيفة الذي لم يلبث أن مات، وجاء الإسلام، فأسلم ياسر وسمية وعمار، وأخوه عبد الله بن ياسر، فغضب عليهم مواليهم بنو مخزوم غضبًا شديدًا، صبّوا عليهم العذاب صبًّا، كانوا يخرجونهم إذا حميت الظهيرة فيعذبونهم برمضاء مكة[٢]، ويقلبونهم ظهرًا لبطن[٣]، فيمر عليهم الرسول ﷺ وهم يعذبون، فيقول: «صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة»[٤]، وجاء أبو جهل إلى سمية فقال لها: ما آمنت بمحمد إلا لأنك عشقته لجماله، فأغلظت له القول، فطعنها بالحربة في ملمس العفة فقتلها، فهي أول شهيدة في الإسلام، ﷺ[٥]، وبذلك سطرت بهذا الموقف الشجاع أعلى وأغلى ما تقدمه امرأة في سبيل الله، لتبقى كل امرأة مسلمة، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ترنو إليها، ويهفو قلبها إلى الاقتداء بها، فلا تبخل بشيء في سبيل الله، بعد أن جادت سمية بنت خياط بدمها في سبيل الله[٦].

وقد جاء في حديث عثمان ﷺ قال: «أقبلت مع رسول الله ﷺ آخذًا بيدي نتمشى بالبطحاء، حتى أتى على آل عمار بن ياسر، فقال أبو عمار: يا رسول الله الدهر هكذا؟ فقال له النبي ﷺ: اصبر، ثم قال: اللهم اغفر لآل ياسر، وقد فعلت»[٧]، ثم لم يلبث ياسر أن مات تحت العذاب.

---

(١) انظر: أسباب الأشراف للبلاذُرّي (١/ ١٠٠، ١٥٧).

(٢) ابن هشام السيرة النبوية (٢/ ٦٨).

(٣) بهجة المحافل للعامري (١/ ٩٢).

(٤) صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي (ص ٩٧، ٩٨).

(٥) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي (ص ٩٩).

(٦) التربية القيادية (١/ ٢١٧).

(٧) صحيح السيرة النبوية (ص ٩٨)، أورده الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٩٣) وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

لم يكن في وسع النبي ﷺ أن يقدم شيئًا لآل ياسر، رموز الفداء والتضحية، فليسوا بأرقاء حتى يشتريهم ويعتقهم، وليست لديه القوة ليستخلصهم من الأذى والعذاب، فكل ما يستطيعه ﷺ أن يزف لهم البشرى بالمغفرة والجنة، ويحثهم على الصبر؛ لتصبح هذه الأسرة المباركة قدوة للأجيال المتلاحقة، ويشهد الموكب المستمر على مدار التاريخ هذه الظاهرة «صبرًا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة»(١).

أما عمار رضي الله عنه فقد عاش بعد أهله زمنًا يكابد من صنوف العذاب ألوانًا، فهو يُصنَّف في طائفة المستضعفين، الذين لا عشائر لهم بمكة تحميهم، وليست لهم منعة ولا قوة، فكانت قريش تعذبهم في الرمضاء بمكة، أنصاف النهار ليرجعوا عن دينهم، وكان عمار يعذب حتى لا يدري ما يقول(٢)، ولما أخذه المشركون ليعذبوه لم يتركوه حتى سبَّ النبي ﷺ، وذكر آلهتهم بخير، فلما أتى النبي ﷺ قال: «ما وراءك؟» قال: شر، والله ما تركني المشركون حتى نلت منك، وذكرت آلهتهم بخير، قال: «كيف تجد قلبك»؟ قال: مطمئنًا بالإيمان، قال: «فإن عادوا فعُد»(٣)، ونزل الوحي بشهادة الله تعالى على صدق إيمان عمار، قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النحل: الآية ١٠٦] وقد حضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ(٤).

وفي حادثتي بلال وعمار فقه عظيم يتراوح بين العزيمة والرخصة، يحتاج من الدعاة أن يستوعبوه، ويضعوه في إطاره الصحيح، وفي معاييره الدقيقة دون إفراط وتفريط.

٤ ـ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه:

تعرض للفتنة من قبل والدته الكافرة، فامتنعت عن الطعام والشراب، حتى يعود إلى دينها. قال ابن كثير: «قال الطبراني في كتاب العشرة أن سعدًا، قال: أنزلت فيّ هذه الآية: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ﴾ [لقمان: الآية ١٥].

وقال: كنت رجلاً بَرًّا بأمي، فلما أسلمتُ، قالت: يا سعد، ما هذا الذي أراك قد أحدثت، لتدعنَّ دينك هذا، أو لا آكُل ولا أشرب حتى أموت، فتُعيَّر بي، فيقال: يا قاتل أمه، فقلت: لا تفعلي يا أُمَّه فإني لا أدع ديني هذا لشيء، فمكثت يومًا وليلة لم تأكل، فأصبحت قد جهدت، فمكثت يومًا آخر وليلة أخرى لم تأكل، فأصبحت قد جهدت، فمكثت يومًا وليلة أخرى لا تأكل، فأصبحت قد اشتد جهدها، فلما رأيتُ ذلك، قلت: يا أُمَّه،

---

(١) التربية القيادية (١/ ٢١٧، ٢١٨).

(٢) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي (ص ١٠٠).

(٣) انظر: فقه السيرة، الغزالي (ص ١٠٣).

(٤) المصدر نفسه.

تعلمين، والله، لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسًا نفسًا، ما تركت ديني هذا لشيء، فإن شئت فَكُلي وإن شئت لا تأكلي، فأكلت»[١].

وروى مسلم: أن أم سعد حلفت أن لا تكلمه أبدًا حتى يكفر بدينه، ولا تأكلَ ولا تشرب، قالت: زعمتَ أن الله وصَّاك بوالديك، وأنا أمك، وأنا آمرك بهذا، قال: مكثت ثلاثًا حتى غُشي عليها من الجهد، فقام ابن لها يقال له عُمارة، فسقاها، فجعلت تدعو على سعد، فأنزل الله ﷻ في القرآن الكريم هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى﴾ [العنكبوت: ٨] [٢] وفيها ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان: الآية ١٥].

قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها بعصًا ثم أَوْجَرُوها[٣]، فمحنة سعد محنة عظيمة، وموقفه موقف فذ يدل على مدى تغلغل الإيمان في قلبه، وأنه لا يقبل فيه مساومة مهما كانت النتيجة[٤].

ومن خلال تتبع القرآن المكي، نجد أنه رغم قطع الولاء، سواء في الحب أو النصرة بين المسلم وأقاربه الكفار، فإن القرآن أمر بعدم قطع صلتهم وبرهم والإحسان إليهم، ومع ذلك فلا ولاء بينهم، لأن الولاء لله ورسوله ودينه والمؤمنين[٥].

٥ ـ مصعب بن عمير رضي الله عنه:

كان مصعب بن عمير رضي الله عنه أنعم غلام بمكة، وأجوده حلة، وكان أبواه يحبانه، وكانت أمه مليئة كثيرة المال، تكسوه أحسن ما يكون من الثياب وأرقه، وكان أعطر أهل مكة، يلبس الحضرمي من النعال[٦]، وبلغ من شدة كلف أمه به أنه يبيت وقَعْبُ الحَيْس[٧] عند رأسه،

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٤٦) عند الآية (١٥) من سورة لقمان، مع ملاحظة وجود حذف وإضافة في بعض ألفاظ الرواية في بعض الطبعات.

(٢) تعقيب: هكذا وردت ألفاظ الآية في صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاص، وفي شرح النووي على مسلم، ولم يتكلم عليها الإمام النووي؛ والصواب الموجود في القرآن هو أن نص الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ﴾ [وهي الآية ٨ من العنكبوت] وكذلك نص الآية (١٤) من لقمان هو: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ والآية (١٥) التالية لها نصها: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ فلا أدري كيف جاء هذا في رواية مسلم المذكورة. (المراجع).

(٣) صحيح مسلم (٢/ ١٨٧٧، ١٨٧٨) ورقم الحديث [٤٣، ٤٤ـ (١٧٤٨)]. وشجروا فاها، وأوجروها، يعني: فتحوا فمها وصبُّوا فيه الطعام.

(٤) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي (ص ١٠٦).

(٥) انظر: الولاء والبراء، محمد القحطاني (ص ١٧٤، ١٧٥).

(٦) الطبقات الكبرى (٣/ ١١٦).

(٧) القَعْب: القَدَح الغليظ، والحَيْس: تمر وأَقِط وسمن تخلط وتعجن.

فإذا استيقظ من نومه أكل[١]، ولما علم أن رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام في دار الأرقم بن أبي الأرقم دخل عليه فأسلم، وصدّق به، وخرج فكتم إسلامه خوفًا من أمه وقومه، فكان يختلف إلى رسول الله ﷺ سرًا، فبصر به عثمان بن طلحة[٢] يصلي فأخبر أمه وقومه، فأخذوه وحبسوه، فلم يزل محبوسًا حتى خرج إلى أرض الحبشة في الهجرة الأولى[٣].

قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: لقد رأيته جهد في الإسلام جهدًا شديدًا حتى لقد رأيت جلده يتحشَّف - أي يتطاير - تحشُّف جلد الحية عنها، حتى إن كنا لنعرضه على قتبنا فنحمله مما به من الجهد[٤]، وكان رسول الله ﷺ كلما ذكره، قال: «ما رأيت بمكة أحدًا أحسن لمة ولا أرق حلة ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير»[٥]، ومع كل ما أصابه رضي الله عنه من بلاء ومحنة، ووهن في الجسم والقوة، وجفاء من أقرب الناس إليه، لم يقصر عن شيء مما بلغه أصحاب رسول الله ﷺ من الخير، والفضل، والجهاد في سبيل الله تعالى، حتى أكرمه الله تعالى بالشهادة يوم أحد[٦].

يعتبر مصعب رضي الله عنه نموذجًا من تربية الإسلام للمترفين الشباب، للمنعمين من أبناء الطبقات الغنية المرفهة، لأبناء القصور والمال والجاه، للمعجبين بأشخاصهم، المبالغين في تأنقهم، الساعين وراء مظاهر الحياة، كيف تغيرت؟ ووقف بعد إسلامه قويًا لا يضعف، ولا يتكاسل، ولا يتخاذل، ولا تقهره نفسه وشهواته، فيسقط في جحيم النعيم الخادع[٧].

لقد ودع ماضيه بكل مافيه من راحة ولذة، وهناءة، يوم دخل هذا الدين، وبايع تلك البيعة، وكان لا بد له من المرور في درب المحنة، لكي يصقل إيمانه، ويتعمق يقينه، وكان مصعب مطمئنًا راضيًا، رغم ما حوله من جبروت ومخاوف، ورغم ما نزل به من البؤس والفقر والعذاب، ورغم ما فقده من مظاهر النعم والراحة[٨]، فقد تعرض لمحنة الفقر، ومحنة فقد الوجاهة، والمكانة عند أهله، ومحنة الأهل والأقارب والعشيرة، ومحنة الجوع والتعذيب، ومحنة الغربة والابتعاد عن الوطن، فخرج من كل تلك المحن منتصرًا بدينه وإيمانه، مطمئنًا أعمق الاطمئنان، ثابتًا أقوى الثبات[٩]، ولنا معه وقفات في المدينة بإذن الله تعالى.

---

(١) الروض الأنف (٢/ ١٩٥).
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ١٠- ١٢).
(٣) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي (ص ١٠٧).
(٤) السير والمغازي لابن إسحاق (ص ١٩٣).
(٥) الطبقات الكبرى (٣/ ١١٦).
(٦) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي (ص ١٠٨).
(٧) انظر: مصعب بن عمير الداعية المجاهد، محمد بريغش (ص ١٠٥).
(٨) انظر: مصعب بن عمير الداعية المجاهد، محمد بريغش (ص١٠٥، ١٠٧).
(٩) المصدر السابق (ص ١٢٦).

٦ـ خبّاب بن الأرت رضي الله عنه :

كان خباب رضي الله عنه قَيْنًا[١] بمكة، وأراد الله له الهداية مبكرًا، فدخل في الإسلام قبل دخول دار الأرقم بن أبي الأرقم[٢]، فكان من المستضعفين الذين عذبوا بمكة لكي يرتد عن دينه، وصل به العذاب بأن ألصق المشركون ظهره بالأرض على الحجارة المحماة حتى ذهب ماء مَتْنه[٣].

وكان الرسول ﷺ يألف خبابًا، ويتردد عليه بعد أن أسلم، فلما علمت مولاته بذلك، وهي أم أنمار الخزاعية، أخذت حديدة قد أحمتها، فوضعتها على رأسه، فشكا خبابًا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: «اللهم انصر خبابًا» فاشتكت مولاته رأسها، فكانت تعوي مع الكلاب، فقيل لها: اكتوي، فجاءت إلى خباب ليكويها فكان يأخذ الحديدة قد أحماها فيكوي بها رأسها، وإن في ذلك لعبرة لمن أراد أن يعتبر، ما أقرب فرج الله ونصره من عباده المؤمنين الصابرين، فانظر كيف جاءت إليه بنفسها تطلب منه أن يكويها على رأسها[٤]، ولما زاد ضغط المشركين على ضعفاء المسلمين ولقوا منهم شدة، جاء خباب إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقال له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا، فقعد الرسول ﷺ وهو محمرّ وجهه، فقال: «كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيُشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه، ويُمْشَط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون[٥].

وللشيخ سلمان العودة حفظه الله تعليق لطيف على هذا الحديث: يا سبحان الله، ماذا جرى حتى احمر وجه المصطفى ﷺ، وقعد من ضجعته؟ وخاطب أصحابه بهذا الأسلوب القوي المؤثر، ثم عاتبهم على الاستعجال؟

لأنهم طلبوا الدعاء منه ﷺ.

كلا: حاشاه من ذلك، وهو الرَّءوف الرحيم بأمته.

إن أسلوب الطلب: ألا تدعو لنا؟ ألا تستنصر لنا؟ يوحي بما وراءه، وأنه صادر من قلوب أمضها العذاب، وأنهكها الجهد، وهدتها البلوى، فهي تلتمس الفرج العاجل، وتستبطىء النصر، فتستدعيه.

---

(١) قينًا: حدادًا.

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٧٩).

(٣) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي (ص ٩٥).

(٤) المصدر السابق نفسه (ص ٩٦).

(٥) البخاري، ك ـ المناقب، ب ـ علامات النبوة في الإسلام، ورقمه (٣٦١٢). ومواضع أخرى.

وهو ﷺ يعلم أن الأمور مرهونة بأوقاتها، وأسبابها، وأن قبل النصر البلاء، فالرسل تبتلى ثم تكون لها العاقبة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ١١٠].

ويلمس عليه السلام من واقع أصحابه، وملابسات أحوالهم، بَرَمَهم بالعذاب الذي يلاقون، حتى يفتنوا عن دينهم، ويستعلي عليهم الكفرة، ويموت منهم من يموت تحت التعذيب.

وقد لا يكون من الميسور أن يدرك المرء ـ بمجرد قراءة النص ـ حقيقة الحال التي كانوا عليها حين طلبوا منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ الدعاء والاستنصار، ولا أن يعرف المشاعر والإحساسات التي كانت تثور في نفوسهم إلا أن يعيش حالاً قريبًا من حالهم ويعاني ـ في سبيل الله ـ بعض ما عانوا.

لقد كان ﷺ يربيهم على:

أ ـ التأسي بالسابقين من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم، في تحمل الأذى في سبيل الله ويضرب لهم الأمثلة في ذلك.

ب ـ التعلق بما أعده الله في الجنة للمؤمنين الصابرين من النعيم، وعدم الاغترار بما في أيدي الكافرين من زهرة الحياة الدنيا.

ج ـ التطلع للمستقبل الذي ينصر الله فيه الإسلام في هذه الحياة الدنيا، ويذل فيه أهل الذل والعصيان.

وثَمَّةَ أمرٌ آخر كبير، ألا وهو: أنه ﷺ مع هذه الأشياء كلها كان يخطط ويستفيد من الأسباب المادية المتعددة، لرفع الأذى والظلم عن أتباعه، وكف المشركين عن فتنتهم، وإقامة الدولة التي تجاهد في سبيل الدين، وتتيح فرصة لكل مسلم أن يعبد ربه حيث شاء، وتزيل الحواجز والعقبات، التي تعترض طريق الدعوة إلى الله[1].

وقد تحدث خباب رضي الله عنه عن بعض ما كان يلقون من المشركين من عنت وسوء معاملة، ومساومة على الحقوق، حتى يعودوا إلى الكفر، قال: كنت رَجُلاً قَيْنًا وكان لي على العاص بن وائل دَيْن، فأتيته أتقاضاه، فقال لي: لا، والله، لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث، قال: فإني إن متُّ ثم بُعثت جئتني، ولي ثَمَّ مالٌ وولد فأعطيتك، فأنزل الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧] إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٠][2].

---

(١) انظر: الغرباء الأولون (ص ١٤٥، ١٤٦).

(٢) مسند أحمد (٥/ ١١١) ورقمه ٢١٠٧٥) وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

وذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته سأل خبابًا عما لقي في ذات الله تعالى، فكشف خباب عن ظهره، فإذا هو قد برص، فقال عمر: ما رأيت كاليوم، فقال خباب: يا أمير المؤمنين لقد أوقدوا لي نارًا، ثم سلقوني فيها، ثم وضع رَجُلٌ رِجْلَه على صدري فما اتقيت الأرض - أو قال: برد الأرض - إلا بظهري، وما أطفأ تلك النار إلا شحمي[١].

عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

كان منهج رسول الله ﷺ في معاملته للناس حكيمًا، وكان يعامل الأكابر وزعماء القبائل بلطف وترفق، وكذلك الصبيان الصغار، فهذا ابن مسعود رضي الله عنه يحدثنا عن لقائه اللطيف برسول الله ﷺ: كنت غلامًا أرعى غنمًا لعقبة بن أبي مُعَيْط، فمر بي رسول الله ﷺ وأبو بكر فقال: «يا غلام هل من لبن؟» قلت: نعم، ولكني مؤتمن، قال: «فهل من شاة لم يَنْزُ عليها فحل؟» فأتيته بشاة، فمسح ضرعها فنزل لبن فحله في إناء فشرب وسقى أبا بكر، ثم قال للضرع: «اقلص» فقلص، قال: ثم أتيته بعد هذا فقلت: يا رسول الله، علمني من هذا القول، قال: فمسح رأسي وقال: «يرحمك الله فإنك غُلَيم مُعَلَّم»[٢].

وهكذا كان مفتاح إسلامه كلمتين عظيمتين: الأولى: قالها عن نفسه «إني مؤتمن»، والثانية: كانت من المصدوق، حيث قال له: «إنك غُلَيم معلَّم» ولقد كان لهاتين الكلمتين دور عظيم في حياته، وأصبح فيما بعد من أعيان علماء الصحابة رضوان الله عليهم، ودخل عبد الله في ركب الإيمان، وهويمخر بحار الشرك في قلعة الأصنام، فكان واحدًا من أولئك السابقين، الذين مدحهم الله في قرآنه العظيم[٣]، قال عنه ابن حجر: «أحد السابقين الأولين، أسلم قديمًا، وهاجر الهجرتين، وشهد بدرًا والمشاهد بعدها، ولازم النبي ﷺ وكان صاحب نعليه»[٤].

* أول من جهر بالقرآن الكريم:

بالرغم من أنّ ابن مسعود رضي الله عنه كان حليفًا وليس له عشيرة تحميه، ومع أنه كان ضئيل الجسم دقيق السَّاقين، فإن ذلك لم يَحُلْ دون ظهور شجاعته وقوة نفسه، رضي الله عنه ، وله مواقف رائعة في ذلك، منها ذلك المشهد المثير في مكة، وإبان الدعوة وشدة وطأة قريش عليها، فلقد وقف على مَلَئِهم وجهر بالقرآن، فقرع به أسماعهم المقفلة وقلوبهم المغلَّفة[٥]، فكان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة. اجتمع يومًا أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا

(١) الروض الأنف (٢/ ٩٨).

(٢) البداية والنهاية (٣/ ٣٢)، سير أعلام النبلاء (١/ ٤٦٥).

(٣) انظر: عبد الله بن مسعود، عبد الستار الشيخ (ص ٤٣).

(٤) الإصابة (٦/ ٢١٤).

(٥) انظر: عبد الله بن مسعود (ص ٤٥).

القرآن يُجهر لها به قط، فمن رجل يسمعهموه؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا! قالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة، يمنعونه من القوم إن أرادوه! قال: دعوني فإن الله سيمنعني! قال: فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أنديتها، حتى قام عند المقام ثم قرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ـ رافعًا بها صوته ـ ﴿الرَّحْمَٰنُ ① عَلَّمَ الْقُرْآنَ ②﴾ [الرَّحمٰن: ١ ـ ٢] ، قال: ثم استقبلها يقرؤها، قال: فتأملوه فجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أمِّ عبد؟ قال: ثم قالوا: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد! فقاموا إليه فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثَّروا في وجهه، فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك! فقال: ما كان أعداء الله أهون عليَّ منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدًا! قالوا: لا، حسبك، قد أسمعتهم ما يكرهون[١].

وبهذا كان عبد الله بن مسعود أول من جهر بالقرآن بمكة بعد رسول الله ﷺ، ولا غرو أن هذا العمل الذي قام به عبد الله يعتبر تحديًا عمليًا لقريش التي ما كانت لتتحمل مثل هذا الموقف، ويلاحظ جرأة عبد الله عليهم بعد هذه التجربة على الرغم مما أصابه من أذى[٢].

٨ ـ خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه :

كان إسلام خالد قديمًا، لرؤيا رآها عند أول ظهور النبي ﷺ، إذ رأى كأنه وقف على شفير النار، وهناك من يدفعه فيها، والرسول يلتزمه لئلا يقع، ففزع من نومه، معتقدًا أن هذه الرؤيا حق، فقصها على أبي بكر الصديق، فقال له: أُريدَ بك خير، هذا رسول الله ﷺ فاتبعه، فذهب إليه فأسلم، وأخفى إسلامه خوفًا من أبيه، لكن أباه علم لمَّا رأى كثرة تغيبه عنه، فبعث إخوته الذين لم يكونوا قد أسلموا بعد في طلبه، فجيء به، فأنّبه، وضربه بمقرعة، أو عصًا كانت في يده، حتى كسرها على رأسه، ثم حبسه بمكة، ومنع إخوته من الكلام معه، وحذرهم من عمله، ثم ضيق عليه الخناق فأجاعه، وقطع عنه الماء ثلاثة أيام، وهو صابر محتسب، ثم قال له أبوه: والله لأمنعنك القوت، فقال خالد: إن منعتني فإن الله يرزقني ما أعيش به، وانصرف إلى رسول الله ﷺ. فكان يكرمه، ويكون معه، ثم رأى أن يهاجر إلى الحبشة مع من هاجر إليها من المسلمين في المرة الثانية[٣].

٩ ـ عثمان بن مظعون رضي الله عنه :

لما أسلم عدا عليه قومه، بنو جمح، فآذوه، وكان أشدهم عليه، وأكثرهم إيذاءً له أمية بن خلف، ولذلك قال بعد أن خرج إلى الحبشة يعاتبه[٤]:

---

(١) انظر: ابن هشام (١/ ٣١٤، ٣١٥)، أسد الغابة (٣/ ٣٨٥ـ ٣٨٦).

(٢) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي (ص ٨٨).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٢٦٠).

(٤) السيرة النبوية للذهبي (ص ١١٢).

أأخرجتني من بطن مكة آمنا ... وأسكنتني في صرح بيضاء تقذع
تريش نبالاً لا يواتيك ريشها ... وتبرى نبالاً ريشها لك أجمع
وحاربت أقوامًا كرامًا أعزة ... وأهلكت أقوامًا بهم كنت تفزع
ستعلم إن نابتك يوما مَلِمَّة ... وأسلمك الأوباش ما كنت تصنع

وبقي عثمان بن مظعون فترة في الحبشة، لكنه لم يلبث أن عاد منها ضمن من عاد من المسلمين في المرة الأولى، ولم يستطع أن يدخل مكة إلا بجوار من الوليد بن المغيرة، حيث ظل يغدو في جواره آمنًا مطمئنًا، فلما رأى ما يصيب أصحاب النبي ﷺ من البلاء، وماهو فيه من العافية أنكر ذلك على نفسه، وقال: والله إن غدوي ورواحي آمناً بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله مالا يصيبني، لنقص كبير في نفسي[١]، فذهب إلى الوليد بن المغيرة وقال له: يا أبا عبد شمس وفت ذمتك، وقد رددت إليك جوارك، فقال: لمَ يا ابن أخي؟ فلعلك أوذيت، أو انتهكت، قال: لا، ولكني أرضى بجوار الله تعالى، ولا أريد أن أستجير بغيره، قال: فانطلق إلى المسجد فاردد عليَّ جواري علانية، كما أجرتك علانية، فانطلقا إلى المسجد فرد عليه جواره أمام الناس، ثم انصرف عثمان إلى مجلس من مجالس قريش، فجلس معهم، وفيهم لبيد بن ربيعة[٢]، الشاعر ينشدهم، فقال لبيد: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل»، قال عثمان: صدقت، واستمر لبيد في إنشاده فقال: «وكل نعيم لا محالة زائل»، فقال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لا يزول، قال لبيد: يا معشر قريش، والله ما كان يؤذى جليسكم فمتى حدث هذا فيكم؟ فقال رجل من القوم: إن هذا سفيه في سفهاء معه، قد فارقوا ديننا، فلا تجدن في نفسك من قوله، فرد عليه عثمان حتى شرى أمرهما، فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فاخضرت، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان، فقال: أما والله يا ابن أخي إن عينك لغنية عما أصابها، ولقد كنت في ذمة منيعة، فقال عثمان: والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس، ثم عرض عليه الوليد الجوار مرة أخرى فرفض[٣].

وهذا يدل على مدى قوة إيمانه رضي الله عنه، ورغبته في الأجر، والمثوبة عند الله، ولذلك لما مات رأت أم العلاء الأنصارية في المنام أن له عينًا تجري، فجاءت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: «ذلك عمله»[٤].

وغير ذلك من الصحابة الكرام تعرض للتعذيب، وهكذا نرى أولئك الرهط من الشباب القرشي، قد أقبلوا على دعوة الرسول ﷺ، واستجابوا لها، والتفوا حول صاحبها، على الرغم

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٢٠).
(٢) انظر: طبقات الشعراء لابن سلاّم (ص ٤٨، ٤٩).
(٣) السير والمغازي لابن إسحاق (ص ١٧٨- ١٨٠).
(٤) البخاري (٤/ ٢٦٥) ورقمه (٧٠٠٤).

من مواقف آبائهم وذويهم، وأقربائهم المتشددة تجاههم، فضحُّوا بكل ماكانوا يتمتعون به من امتيازات، قبل دخولهم في الإسلام، وتعرضوا للفتنة، رغبة فيما عند الله تعالى من الأجر والثواب، وتحملوا أذى كثيرًا، وهذا فعل الإيمان في النفوس، عندما يخالطها فتستهين بكل ما يصيبها من عنت، وحرمان، إذا كان ذلك يؤدي إلى الفوز برضا الله تعالى وجنته.

هذا، ولم يكن التعذيب والأذى مقصورًا على رجال المسلمين دون نسائهم، وإنما طال النساء أيضًا قسط كبير من الأذى والعنت، بسبب إسلامهنّ كسميّة بنت خياط، وفاطمة بنت الخطاب، ولبيبة جارية بني المؤمل، وزنيرة الرومية، والنَّهْدِية وابنتها، وأم عُبيس، وحَمامة أم بلال وغيرهنّ[١].

خامسًا: حكمة الكف عن القتال في مكة، واهتمام النبي ﷺ بالبناء الداخلي:

كان المسلمون يرغبون في الدفاع عن أنفسهم، ويبدو أن الموقف السلمي أغاظ بعضهم، وخاصة الشباب منهم، وقد أتى عبد الرحمٰن بن عوف وأصحابه إلى النبي ﷺ بمكة فقالوا: يا نبي الله كنا في عزة ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة، قال: «إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم»[٢] وتعرض بعض الباحثين للحكمة الربانية في عدم فرضية القتال في مكة، ومن هؤلاء الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى فقد قال: لا نجزم بما نتوصل إليه، لأننا حينئذٍ نتألى على الله ما لم يبين لنا من حكمة، ونفرض أسبابًا وعللاً قد لا تكون هي الأسباب والعلل الحقيقية، أو قد تكون.

ذلك أن شأن المؤمن أمام أي تكليف، أو أي حكم من أحكام الشريعة هو التسليم المطلق، لأن الله سبحانه هو العليم الخبير، وإنما نقول هذه الحكمة والأسباب من باب الاجتهاد، وعلى أنه مجرد احتمال، لأنه لا يعلم الحقيقة إلا الله، ولم يحددها هو لنا ويطلعنا عليها بنص صريح[٣] ومن هذه الأسباب والحكم والعلل بإيجاز:

١ ـ أن الكف عن القتال في مكة، ربما لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد، في بيئة معينة، لقوم معينين، وسط ظروف معينة، ومن أهداف التربية في مثل هذه البيئة: تربية الفرد العربي على الصبر، على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم حين يقع عليه، أو على من يلوذون به: ليخلص من شخصه، ويتجرد من ذاته، فلا يندفع لأول مؤثر، ولا يهتاج لأول مهيج، ومن ثم يتم الاعتدال في طبيعته وحركته، ثم تربيته على أن يتبع نظام المجتمع الجديد، بأوامر القيادة الجديدة، حيث لا يتصرف إلا وفق ما تأمره ـ مهما يكن مخالفًا

(١) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي (ص ١١٦، ١١٧).

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٥٨).

(٣) الظلال (٢/ ٧١٤).

لمألوفه وعادته ـ وقد كان هذا هو حجر الأساس في إعداد شخصية العربي المسلم لإنشاء (المجتمع المسلم).

٢ ـ وربما كان ذلك أيضًا، لأن الدعوة السلمية أشد أثرًا وأنفذ في مثل بيئة قريش، ذات العنجهية والشرف، والتي قد يدفعها القتل معها ـ في مثل هذه الفترة ـ إلى زيادة العناد، ونشأة ثارات دموية جديدة، كثارات العرب المعروفة أمثال داحس والغبراء وحرب البسوس، وحينئذٍ يتحول الإسلام من دعوة إلى ثارات، تنسى معها فكرته الأساسية.

٣ ـ وربما كان ذلك أيضًا اجتنابًا لإنشاء معركة ومقتلة، داخل كل بيت، فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة، هي التي تعذب المؤمنين، وإنما كان ذلك موكولاً إلى أولياء كل فرد، ومعنى الإذن بالقتال ـ في مثل هذه البيئة ـ أن تقع معركة ومقتلة في كل بيت، ثم يقال: هذا هو الإسلام!! ولقد قيلت حتى والإسلام يأمر بالكف عن القتال! فقد كانت دعاية قريش في المواسم، إن محمدًا يفرق بين الوالد وولده فوق تفريقه لقومه وعشيرته؛ فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد، والمولى بقتل الولي؟

٤ ـ وربما كان ذلك أيضًا، لما يعلمه الله، من أن كثيرًا من المعاندين الذين يفتنون المسلمين عن دينهم، ويعذبونهم هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص، بل من قادته ألم يكن عمر بن الخطاب من بين هؤلاء؟

٥ ـ وربما كان ذلك أيضًا؛ لأن النخوة العربية في بيئة قبلية، من عادتها أن تثور للمظلوم الذي يحتمل الأذى، ولا يتراجع، وبخاصة إذا كان الأذى واقعًا على كرام الناس فيهم، وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة في هذه البيئة؛ فابن الدُّغُنَّة[1] لم يرض أن يترك أبا بكر ـ وهو رجل كريم ـ يهاجر ويخرج من مكة، ورأى في ذلك عارًا على العرب! وعرض عليه جواره وحمايته، وآخر هذه الظواهر نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في شعب أبي طالب.

٦ ـ وربما كان ذلك أيضًا لقلة عدد المسلمين حينئذٍ، وانحصارهم في مكة، حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة، أو بلغت، ولكن بصورة متناثرة، حيث كانت القبائل تقف على الحياد، من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها، لترى ماذا يكون مصير الموقف، ففي مثل هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة ـ حتى ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم ـ ويبقى الشرك، ولا يقوم للإسلام في الأرض نظام، ولا يوجد له كيان واقعي، وهو دين جاء ليكون منهج حياة، ونظام دنيا وآخرة.

٧ ـ إنه لم تكن هناك ضرورة قاهرة ملحة، لتجاوز هذه الاعتبارات كلها، والأمر بالقتال، ودفع

---

(١) ابن الدغنة: رجل جاهلي أجار أبا بكر عندما أخرجه قومه وأراد الهجرة إلى الحبشة، انظر: الإصابة (٢/ ٣٤٤).

الأذى، لأن الأمر الأساسي في هذ الدعوة كان قائمًا ومحققًا وهو (وجود الدعوة)، ووجودها في شخص الداعية محمد ﷺ، وشخصه في حماية سيوف بني هاشم، فلا تمتد إليه يد إلا وهي مهددة بالقطع، ولذلك لا يجرؤ أحد على منعه من إبلاغ الدعوة، وإعلانها في ندوات قريش حول الكعبة، ومن فوق جبل الصفا، وفي الاجتماعات العامة، ولا يجرؤ أحد على سجنه أو قتله، أو أن يفرض عليه كلامًا بعينه يقوله.

إن هذه الاعتبارات كلها ـ فيما نحسب ـ كانت بعض ما اقتضت حكمة الله ـ معه ـ أن يأمر المسلمين بكف أيديهم، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، لتتم تربيتهم، وإعدادهم، وليقف المسلمون في انتظار أمر القيادة، في الوقت المناسب، وليخرجوا أنفسهم من المسألة كلها، فلا يكون لذواتهم فيها حظ، لتكون خالصة وفي سبيل الله[١].

وقد تعلّم الصحابة من القرآن الكريم، فقه المصالح والمفاسد، وكيفية التعامل مع هذا الفقه من خلال الواقع، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٠٨].

وهكذا تعلم الصحابة ﷺ، أن المصلحة إن أدت إلى مفسدة أعظم تترك[٢]، وفي هذا تهذيب أخلاقي، وسمو إيماني، وترفُّع عن مجاراة السفهاء الذين يجهلون الحقائق، وتخلو أفئدتهم من معرفة الله وتقديسه، وقد ذكر العلماء أن الحكم باقٍ في الأمة على كل حال، فمتى كان الكافر في منعة، وغير خاضع لسلطان الإسلام والمسلمين، وخيف أن يسب الإسلام أو النبي ﷺ أو الله ﷻ، فلا يحل لمسلم أن يسب صلبانهم، ولا دينهم ولا كنائسهم، ولا يتعرض إلى ما يؤدي إلى ذلك، لأنه فعل بمنزلة التحريض على المعصية، وهذا نوع من الموادعة، ودليل على وجوب الحكم بسد الذرائع[٣].

والناظر في الفترة المكية، والتي كانت ثلاثة عشر عامًا كلها في تربية وإعداد، وغرس لمفاهيم لا إله إلا الله، يدرك ما لأهمية هذه العقيدة من شأن في عدم الاستعجال، واستباق الزمن، فالعقيدة بحاجة إلى غرس يتعهد بالرعاية والعناية والمداومة، بحيث لا يكون للعجلة والفوضى فيها نصيب، وما أجدر الدعاة إلى الله أن يقفوا أمام تربية المصطفى ﷺ لأصحابه على هذه العقيدة، وقفة طويلة، فيأخذوا منها العبرة والأسوة، لأنه لا يقف في وجه الجاهلية أيًا كانت قديمة أو حديثة أم مستقبلية، إلا رجال اختلطت قلوبهم ببشاشة العقيدة الربانية،

---

(١) الولاء والبراء، محمد القحطاني، لخص نقاطاً من الظلال (ص ١٦٩ـ ١٧١) وفي ظلال القرآن (٢/ ٧١٤ـ ٧١٥)، وفي معالم في الطريق (ص ٦٩ـ ٧١).

(٢) انظر: التفسير المنير للزُّحَيلي (٧/ ٣٢٥).

(٣) المصدر السابق نفسه (٧/ ٣٢٦).

وتعمقت جذور شجرة التوحيد في نفوسهم(١).

كان رسول الله ﷺ قد أمر أصحابه بضبط النفس، والتحلي بالصبر، وكان يربي أصحابه على عينه، ويوجههم نحو توثيق الصلة بالله، والتقرب إليه بالعبادة، وقد نزلت الآيات في المرحلة المكية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المُزمّل: ١ ـ ٤]، فقد أرشدت سورة المزمل الصحابة إلى حاجة الدعاة إلى قيام الليل، والدوام على الذكر، والتوكل على الله، في جميع الأمور، وضرورة الصبر، ومع الصبر الهجر الجميل، والاستغفار بعد الأعمال الصالحة.

كانت الآيات الأولى من سورة المزمل تأمر النبي ﷺ أن يخصص شطرًا من الليل للصلاة، وقد خيّره الله تعالى أن يقوم للصلاة نصف الليل، أو يزيد عليه، أو ينقص منه، فقام النبي ﷺ، وأصحابه معه قريبًا من عام، حتى ورمت أقدامهم، فنزل التخفيف عنهم، بعد أن علم الله منهم اجتهادهم في طلب رضاه، وتشميرهم لتنفيذ أمره ومبتغاه، فرحمهم ربهم، فخفف عنهم، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠].

كان امتحانهم في الفرش، ومقاومة النوم، ومألوفات النفس، لتربيتهم على المجاهدة، وتحريرهم من الخضوع لأهواء النفس، تمهيدًا لحمل زمام القيادة والتوجيه في عالمهم، إذ لا بد من إعداد روحي عال لهم، وقد اختارهم الله لحمل رسالته، وائتمنهم على دعوته، واتخذ منهم شهداء على الناس، فالعشرات من المؤمنين في هذه المرحلة التاريخية كانت أمامهم المهمات العظيمة في دعوة الناس إلى التوحيد، وتخليصهم من الشرك، وهي مهمة عظيمة يقدر على تنفيذها أولئك الذين: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السَّجدَة: الآية ١٦] وقد وصف الله قيام الليل، والصلاة فيه، وقراءة القرآن ترتيلاً ـ أي مع البيان والتؤدة ـ بقوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المُزمّل: الآية ٦] فهو أثبت أثرًا في النفس، مع سكون الليل، وهدأة الخلق، حيث تخلو من شواغلها وتفرغ للذكر والمناجاة، بعيدًا عن علائق الدنيا، وشواغل النهار، وبذلك يتحقق الاستعداد اللازم لتلقي الوحي الإلهي: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المُزمّل: الآية ٥] والقول الثقيل هو القرآن الكريم، وقد ظهر أثر هذا الإعداد الدقيق للمسلمين الأوائل في قدرتهم على تحمل أعباء الجهاد، وإنشاء الدولة بالمدينة، وفي إخلاصهم العميق للإسلام، وتضحيتهم من أجل إقامته في دنيا الناس، ونشره بين العالمين(٢).

---

(١) انظر: الولاء والبراء (ص ١٧١).

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٦٠).

لقد كان النبي ﷺ مهتمًّا بجبهته الداخلية، وحريصًا على تعبئة أصحابه بالعقيدة القوية، التي لا تتزعزع ولا تلين، وكان هذا مبعثًا لروح معنوية مرتفعة وقوية، للدفاع وتحمل العذاب والأذى في سبيل الدعوة، وأصبحت الجماعة الأولى وحدة متماسكة، لا تؤثر فيها حملات العدو النفسية، ولا تجد لها مكانًا في هذه الجماعة، عن طريق المؤاخاة بين المسلمين، فقد أصبحت رابطة الأخوة في الله تزيد على رابطة الدم والنسب، وتفضلها في الدين الإسلامي، وتعايش الرعيل الأول بمعاني الأخوة الرفيعة، القائمة على الحب والمودة والإيثار، وكانت أحاديث رسول الله ﷺ تفعل فعلها في نفوس الصحابة، فكان ﷺ يحث المسلمين على الأخوة والترابط، والتعاون، وتفريج الكرب، لا لشيء إلا لرضا الله سبحانه، لا نظير خدمة مقابلة أو نحو ذلك، وإنما يفعل المسلم ذلك ابتغاء وجه الله وحده، وهذه المبادىء هي سر استمرار الأخوة الإسلامية، وتماسك المجتمع الإسلامي[١]، وبيَّن لهم الرسول ﷺ في الحديث القدسي الذي يرويه عن ربه سبحانه وتعالى: «المتحابون في جلالي، لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء»[٢].

وهكذا أصبحت الأخوة الصادقة من مقاييس الأعمال، وأصبحت المحبة في الله من أفضل الأعمال، ولها أفضل الدرجات عند الله، وحذر الرسول ﷺ المسلمين من أن تهون عليهم هذه الرابطة، ووضع لهم أساس الحفاظ عليها، فقال لهم: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً»[٣].

واستعان النبي ﷺ في ربط المجتمع الداخلي، وتوحيد جبهته لتكون قوية في مواجهة الحرب النفسية الموجهة ضدها، بالمساواة بين أفراد هذه الجبهة وإعطائهم الحرية، فهم لا يدخلون إلى هذا المجتمع إلا بالحرية، ثم كانت لهم في داخله حرية الرأي، وحرية التعبير، والمشورة، أتى محمد ﷺ بمبدإ المساواة بين جميع الناس، الحاكم والمحكوم، والغني والفقير، وبين جميع الطبقات، وقد كان لهذا المبدإ العظيم، أكبر الأثر في نفوس أتباع النبي ﷺ وجعلهم يتحابون ويتماسكون ويفتدون بأرواحهم، ويدافعون عنه بكل ما أوتوا من قوة وعزيمة، فهو ﷺ لم يقر تفاوتًا بين البشر، بسبب مولد أو أصل، أو حسب أو نسب، أو وراثة، أو لون. والاختلاف في الأنساب والأجناس والألوان، لا يؤدي إلى اختلاف في الحقوق والواجبات، أو العبادات، فالكل أمام الله سواسية، وعندما طلب أشراف مكة من رسول الله ﷺ أن يجعل لهم مجلسًا غير مجلس العبيد والضعفاء، حتى لا يضمهم وإياهم مجلس واحد، بَيَّن الرسول ﷺ أن جميع الناس متساوون في تلقي الوحي والهداية، ورفض

(١) انظر: الحرب النفسية ضد الإسلام، د. عبد الوهاب كحيل (ص ١٢٨).

(٢) أخرجه الترمذي وصححه، كتاب الزهد (٤/ ٥١٥) رقم (٢٣٩٠).

(٣) البخاري، كتاب الأدب (٧/ ١٩٩ـ رقم ٦٠٧٦).

كفار مكة وساداتها في ذلك الوقت أن يجلسوا مع العبيد، ومن يعتبرونهم ضعفاء، أذلاء من أتباع محمد ﷺ، فنزل القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٢٨، ٢٩]، بل إن النبي ﷺ لما أعرض عن ابن أم مكتوم الأعمى، منشغلاً بمحاورة بعض الأشراف، عاتبه الله أشد العتاب.

وكان من أكبر أساليب النبي ﷺ في ربطه المجتمع الإسلامي وتوحيده، وتقويته للجبهة الداخلية وجعلها قوية البنيان متماسكة، ما دعا إليه ﷺ من التكافل المادي والمعنوي بين المسلمين، ليعين منهم القوي الضعيف، وليعطف الغني على الفقير، ولم يترك ﷺ ثغرة واحدة، تنفذ منها الحرب النفسية إلى هذا الصف الإسلامي الأول، وأصبحت الجماعة الأولى صخرة عظيمة تحطمت عليها كل الجهود والخطط التي بذلها زعماء مكة للقضاء على الدعوة(١).

سادسًا: أثر القرآن الكريم في رفع معنويات الصحابة:

كان للقرآن الكريم أثر عظيم في شد أزر المؤمنين، من جانب، وتوعده الكفار بالعذاب من جانب آخر، مما كان له وقع القنابل على نفوسهم، وقد كان دفاع القرآن الكريم عن الصحابة يتمثل في نقطتين:

الأولى: حث الرسول ﷺ على رعايتهم، وحسن مجالستهم، واستقبالهم، ومعاتبته على بعض المواقف، التي ترك فيها بعض الصحابة، لانشغاله بأمر الدعوة أيضًا.

الثانية: التخفيف عن الصحابة بضرب الأمثلة والقصص لهم، من الأمم السابقة، وأنبيائها، وكيف لاقوا من قومهم الأذى والعذاب، ليصبروا ويستخفوا بما يلاقون، وأيضاً بمدح بعض تصرفاتهم، ثم بوعدهم بالثواب والنعيم المقيم في الجنة، وكذلك بالتنديد بأعدائهم الذين كانوا يذيقونهم الألم والأذى(٢).

أما النقطة الأولى: حينما كان النبي ﷺ يجلس في المسجد مع المستضعفين من أصحابه: خباب وعمار، وابن فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية، وصهيب وأشباههم، فكانت قريش تهزأ بهم، وقال الكفار بعضهم لبعض: هؤلاء أصحابه كما ترون، ثم يقولون: أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا بالهدى والحق، لو كان ما جاء به محمد خيرًا ما سبقنا هؤلاء إليه، وما خصهم الله به دوننا(٣).

---

(١) انظر: الحرب النفسية ضد الإسلام (ص ١٢٥ـ ١٤٠).

(٢) الحرب النفسية ضد الإسلام (ص ٢٦٩).

(٣) المصدر نفسه (ص ٢٧٠، ٢٧١).

obeikandi.com

ورد الله سبحانه وتعالى على استهزاء هؤلاء الكفار مبينًا لهم أن رضا الله لبعض عباده، لا يتوقف على منزلته، ولا مكانته بين الناس في الدنيا، كما يؤكد لرسوله ﷺ هذا المفهوم، حتى لا يتأثر بما يقوله الكفار، من محاولات الانتقاص من شأن هؤلاء الصحابة، ومبينًا له أيضًا مكانتهم، فيقول: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: الآيات ٥٢ ـ ٥٤].

وهكذا بيّن الله لرسوله شأن هؤلاء الصحابة، وقيمتهم ومنزلتهم التي يجهلها، أو يتجاهلها الكفار، ويحاولون أن ينالوا منها، بل ويزيد الله على ذلك أن ينهى الرسولَ عن طردهم، كما يأمره بحسن تحيتهم، ويأمره أيضًا أن يبشرهم بأن الله سبحانه قد وعد بمغفرة ذنوبهم بعد توبتهم.

كيف تكون الروح المعنوية لهؤلاء، كيف يجدون الأذى من الكفار بعد ذلك، إنهم يفرحون بهذا الأذى الذي وصلوا بسببه إلى هذه المنازل العظيمة[١].

ثم نرى عتاب الله لرسوله ﷺ في آيات تتلى إلى يوم القيامة، وكان هذا العتاب في شأن رجل فقير أعمى من الصحابة، أعرض عنه الرسول ﷺ مرة واحدة ولم يجبه على سؤاله، لانشغاله بدعوة بعض أشراف مكة[٢].

فنزل قول الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عَبَسَ: الآيات ١ ـ ١٠].

إنه لا مجال للامتيازات في دعوة الحق، بسبب الحسب والنسب، أو المال والجاه، فهي إنما جاءت لتأصيل النظرة إلى الإنسان، وبيان وحدة الأصل، وما تقتضيه من المساواة والتكافؤ. من هنا يمكن تعليل شدة أسلوب العتاب الذي وجهه الله تعالى لرسوله للاهتمام الكبير الذي أظهره لأُبَي بن خلف، على حساب استقباله لابن أم مكتوم الضعيف رضي الله عنه، فابن أم مكتوم يرجح في ميزان الحق على البلايين من أمثال أُبي بن خلف[٣] لعنه الله.

وكانت لهذه القصة دروس وعبر، استفاد منها الرعيل الأول، ومن جاء بعدهم من المسلمين، ومن أهم هذه الدروس الإقبال على المؤمنين؛ فعلى الدعاة البلاغ، وليس عليهم

---

(١) انظر: الحرب النفسية ضد الإسلام (ص ٢٧٠، ٢٧١).

(٢) المصدر نفسه (ص ٢٧١).

(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/١٦٧) مع تصرف في العدد بدل مئة بلايين.

الهداية، في قصة الأعمى دليل على نبوة محمد ﷺ، فلو لم يكن نبينا محمد ﷺ رسولَ الله، لكتم هذه الحادثة، ولم يخبر الناس بها، لما فيها من عتاب له ﷺ، ولو كان كاتمًا شيئًا من الوحي لكتم هذه الآيات، وآيات قصة زيد، وزينب بنت جحش[١] فعلى الدعاة تقديم أهل الخير والإيمان[٢].

أما النقطة الثانية في دفاع القرآن الكريم عن الصحابة، فقد كانت بالتخفيف عنهم، وكانت أهم وسائل التخفيف بإظهار أن هذا الأذى الذي يلقونه لم يكن فريدًا من نوعه، وإنما حدث قبل ذلك مثله وأشد منه، كانت القصص التي تتحدث عن حياة الرسل في القرآن الكريم، من لدن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، تثبيتًا للمسلمين، ولروح التضحية، والصبر فيهم من أجل الدين، وبينت لهم القدوة الحسنة، التي كانت في العصور القديمة من أنجح الوسائل في ميادين الإعلام والتربية والتعليم، والعلاقات العامة، فالقصص القرآني يحوي الكثير من العبر والحكم والأمثال.

كان أيضًا من أساليب القرآن في تخفيفه عن الصحابة، والدفاع عنهم أسلوبه في مدحهم، ومدح أعمالهم في القرآن الكريم، يقرأها الناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، كما حدث مع الصديق لما أعتق سبع رقاب من الصحابة لينقذهم من الأذى والتعذيب، في الوقت نفسه الذي يندد فيه بأمية بن خلف الذي كان يعذب بلال بن رباح، فالقرآن بدستوره الأخلاقي، قد قدم قواعد الثواب والعقاب، وشجع المؤمنين وحذر المخالفين، وحمل هذا التنديد مغزى عميقًا، فقد أنار الطريق للصحابة، وكان غمّة وكربًا على نفوس الكفار المترددين، إذ جاء قول الله تعالى:

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: الآيات ١٤ ـ ٢١].

وكذلك خلّد القرآن ثبات وفد نصارى نجران على الإسلام، رغم استهزاء الكفار ومحاولاتهم لصدهم عن الإسلام، لذا نزلت فيهم بعض الآيات كما يذكر بعض المؤرخين[٣]، قال تعالى:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٢ ـ ٥٤].

---

(١) تفسير ابن عطية (١٥/ ٣١٦)، القاسمي (١٧/ ٥٤).

(٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن، د. عبد الكريم زيدان (٢/ ٨٩).

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٤).

وكانت الآيات بعد ذلك تبشر الصحابة بالثواب العظيم، وبالنعيم المقيم في الجنة، جزاء بما صبروا، وما تحملوا من الأذى، وتشجيعًا لهم على الاستمرار في طريق الدعوة، غير مبالين بما يسمعونه وما يلاقونه، فالنصر والغلبة لهم في النهاية؛ كما بين لهم النبي ﷺ في أحاديثه، وكما بيّن لهم القرآن. كما بيَّن القرآن الكريم في الوقت نفسه مصير أعدائهم كفار مكة، قال تعالى:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥١، ٥٢].

وبيَّن فضل تمسكهم بالقرآن، وإيمانهم به قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [فَاطِر: ٢٩، ٣٠].

وبيَّن سبحانه فضل التمسك بعبادته، رغم الأذى والتعذيب، وبيَّن جزاء الصبر على ذلك، قال تعالى:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزُّمَر: ٩، ١٠].

وهكذا كان القرآن الكريم يخفف عن الصحابة، ويدافع عنهم، ويحصنهم ضد الحرب النفسية، وبذلك لم تؤثر تلك الحملات ووسائل التعذيب في قلوب الصحابة؛ بفضل المنهج القرآني، والأساليب النبوية الحكيمة. لقد تحطمت كل أساليب المشركين في محاربة الرسول ﷺ وأصحابه أمام العقيدة الصحيحة، والمنهج السليم، الذي تَشَرَّبَهُ الرعيل الأول.

سابعًا: أسلوب المفاوضات:

اجتمع المشركون يومًا فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر، والكهانة، والشعر، فليأت هذا الرجل الذي فرَق جماعتنا، وشتت أمرنا، وعاب ديننا، فليكلمه، ولينظر ماذا يرد عليه؟ فقالوا: ما نعلم أحدًا غير عتبة بن ربيعة، فقالوا: أنت يا أبا الوليد، فأتاه عتبة فقال: يا محمد أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ. قال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنتم تزعم أنك خير منهم، فتكلم حتى نسمع قولك، إنا والله ما رأينا سَخْلَة قط أشأم على قومك منك، فرقت جماعتنا، وشتت أمرنا وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب حتى لقد طار فيهم: أن في قريش ساحرًا، وأن في قريش كاهنًا، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى.

أيها الرجل، إن كان إنما بك الحاجة؛ جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أغنى قريش رجلاً، وإن كان إنما بك ـ الباه ـ فاختر أي نساء قريش شئت، فلنزوجك عشرًا، فقال رسول الله ﷺ: «فرغت؟» قال: نعم! فقال رسول الله: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [فُصِّلَت: ١ ـ ٣] إلى أن بلغ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فُصِّلَت: ١٣] فقال عتبة: حسبك! ما عندك غير هذا؟ قال: «لا» فرجع إلى قريش فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئًا أرى أنكم تكلمونه إلا كلمته، قالوا: فهل أجابك؟ فقال: نعم»[(١)]. وفي رواية ابن إسحاق: فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة.. يا معشر قريش أطيعوني، واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلكه ملككم وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم[(٢)].

دروس وعبر وفوائد:

أ ـ لم يدخل رسول الله في معركة جانبية، حول أفضليته على أبيه وجده، أو أفضليتهما عليه، ولو فعل ذلك لقضي الأمر دون أن يسمع عتبة شيئًا.

ب ـ لم يخض ﷺ معركة جانبية حول العروض المغرية، وغضبه الشخصي لهذا الاتهام، إنما ترك ذلك كله لهدف أبعد، وترك عتبة يعرض كل ما عنده، وبلغ من أدبه ﷺ أن قال: «أفرغت يا أبا الوليد»؟ فقال: نعم[(٣)].

جـ ـ كان جواب رسول الله ﷺ حاسمًا، إن اختياره لهذه الآيات لدليل على حكمته، وقد تناولت الآيات الكريمة قضايا رئيسية كان منها: إن هذا القرآن تنزيل من الله، بيان موقف الكافرين وإعراضهم، بيان مهمة الرسول، وأنه بشر، بيان أن الخالق واحد هو الله، وأنه خالق السماوات والأرض، بيان تكذيب الأمم السابقة وما أصابها، وإنذار قريش صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود[(٤)].

د ـ خطورة المال، والجاه، والنساء على الدعاة، فكم من الدعاة سقط على الطريق تحت بريق المال، وكم عرضت الآلاف من الأموال على الدعاة ليكفوا عن دعوتهم، والذين ثبتوا أمام إغراء المال هم المقتدون بالنبي ﷺ، وخطورة الجاه واضحة، لأن الشيطان في هذا المجال يزين ويغوي بطرق أكبر، وأمكر، وأفجر. والداعية الرباني هو الذي يتأسى برسول الله ﷺ

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ٦٨، ٦٩).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٩٤).

(٣) انظر: التحالف السياسي في الإسلام، منير الغضبان (ص ٣٣).

(٤) انظر: معين السيرة للشامي (ص ٧٥).

في حركته وأقواله وأفعاله، ولا ينسى الهدف الذي عاش له ويموت من أجله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣] .

وأما النساء فقد قال ﷺ: «ماتركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء»[١] سواء كانت زوجة تثبط الهمة عن الدعوة والجهاد، أو تسليط بعض الفاجرات عليه ليسقطنه في شباكهن، أو في تهيئة أجواء البغي والإثم والمجون، ليرتادها بعد خطوة، أيًّا كانت فإنها فتنة عظيمة في الدين، فها هي قريش تعرض على رسول الله ﷺ نساءها يختار عشرًا منها، أجملهن وأحسنهن، يكن زوجات له إن كان عاجزًا عن الزواج من أكثر من واحدة، إن خطر المرأة حين لا تستقيم على منهج الله أشد من خطر السيف المصلت على الرقاب[٢]، فعلى الدعاة أن يقتدوا بسيد الخلق، ويتذكروا دائمًا قول يوسف عليه السلام . ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤)﴾ [يُوسُف: ٣٣ ـ ٣٤] .

هـ ـ تأثر عتبة من موقف النبي ﷺ، وكان هذا التأثير واضحًا لدرجة أن أصحابه أقسموا على ذلك التأثير قبل أن يخبرهم، فبعد أن كان العدو ينوي القضاء على الدعوة، إذا به يدعو لعكس ذلك، فيطلب من قريش أن تخلي بين محمد ﷺ وما يريد[٣].

و ـ استمع الصحابة لما حدث بين النبي ﷺ وبين عتبة، وكيف رفض حبيبهم ﷺ كل عروضه المغرية، فكان ذلك درسًا تربويًّا خالط أحشاءهم، تعلموا منه الثبات على المبدأ، والتمسك بالعقيدة، ووضع المغريات تحت أقدام الدعاة.

ز ـ تعلم الصحابة من الرسول الكريم ﷺ الحلم ورحابة الصدر، فقد استمع ﷺ إلى ترهات عتبة بن ربيعة، ونيله منه، وقوله عنه: «إن في قريش ساحرًا» و«إن في قريش كاهنًا»، «ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك» و«إن كان بك رَئِيٌّ من الجن» فقد أعرض عنه ﷺ، وأغض عن هذا السباب، بحيث لا يصرفه ذلك عن دعوته وتبليغه إياها، لسيد بني عبد شمس، فقد كانت كل كلمة تصدر من سيد الخلق ﷺ مبدأ يحتذى، وكل تصرف دينًا يتبع، وكل إغضاء خلقًا يتأسى به[٤].

وذكرت بعض كتب السيرة أن قيادات مكة دخلوا في مفاوضات بعد ذلك مع رسول الله ﷺ، وعرضوا عليه إغراءات تلين أمامها القلوب البشرية، ممن أراد الدنيا، وطمع

---

(١) صحيح الجامع الصغير (٥/ ١٣٨ ورقمه ٥٤٧٣).

(٢) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان (ص ١٦٩).

(٣) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية (ص ٨٧).

(٤) انظر: التربية القيادية (١/ ٣٠٤).

في مغانمها، إلا أن رسول الله ﷺ اتخذ موقفًا حاسمًا في وجه الباطل، دون مراوغة أو مداهنة، أو دخول في دهاء سياسي، أو محاولة وجود رابطة استعطاف، أو استلطاف مع زعماء قريش[١]، لأن قضية العقيدة تقوم على الوضوح والصراحة والبيان، بعيدة عن المداهنة والتنازل، ولذلك رد رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكنَّ الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتابًا، وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبرْ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» أو كما قال ﷺ[٢].

بهذا الموقف الإيماني الثابت رجع كيدهم في نحورهم، وثبتت قضية من أخطر قضايا العقيدة الإسلامية، وهي خلوص العقيدة من أي شائبة غريبة عنها، سواء في جوهرها، أو في الوسيلة الموصلة إليها[٣].

لكم دينكم ولي دين

ولما رأى المشركون صلابة المسلمين، واستعلاءهم بدينهم، ورفعة نفوسهم فوق كل باطل، ولما بدأت خطوط اليأس في نفوسهم، من أن المسلمين يستحيل رجوعهم عن دينهم؛ سلكوا مهزلة أخرى من مهازلهم الدالة على طيش أحلامهم، ورعونتهم الحمقاء، فأرسلوا إلى النبي ﷺ الأسود بن عبد المطلب، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، فقالوا: «يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد مانعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيرًا مما نعبد، كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيرًا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه»[٤] فأنزل الله فيهم:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [سورة الكافرون].

ومثل هذه السورة آيات أخرى تشابهها، في إعلان البراء من الكفر وأهله، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يُونس: الآية ٤١].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ

(١) انظر: الوفود في العهد المكي، لعلي الأسطل (ص ٣٧).
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٩٥، ٢٩٦)، التربية القيادية (١/ ٣٠٥).
(٣) تاريخ صدر الإسلام، عبد الرحمٰن الشجاع (ص ٣٩).
(٤) ابن هشام (١/ ٣٦٢).

﴿إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: الآيتان ٥٦، ٥٧].

ولقد بيّنت سورة الكافرون أن طريق الحق واحد، لا عوج فيه، ولافجاج له، إنه العبادة الخالصة لله وحده رب العالمين، فنزلت هذه السورة على الرسول ﷺ للمفاصلة الحاسمة بين عبادة وعبادة، ومنهج ومنهج، وتصور وتصور، وطريق وطريق، نعم نزلت نفيًا بعد نفي وجزمًا بعد جزم، وتوكيدًا بعد توكيد، بأنه لا لقاء بين الحق والباطل، ولا اجتماع بين النور والظلام، فالاختلاف جوهري كامل، يستحيل معه اللقاء على شيء في منتصف الطريق، والأمر لا يحتاج إلى مداهنة، أو مراوغة. نعم فالأمر هنا ليس مصلحة ذاتية، ولا رغبة عابرة، ولا سمًّا في عسل، وليس الدين لله والوطن للجميع كما تزعم الجاهلية المعاصرة، ويدعي المنافقون، والمستغربون الذين يتبعون الضالين والمغضوب عليهم، والملحدين أعداء الله سبحانه في كل مكان، كان الرد حاسمًا على زعماء قريش المشركين، ولا مساومة، ولا مشابهة، ولا حلول وسطاً، ولا ترضيات شخصية؛ فإن الجاهلية جاهلية والإسلام إسلام، في كل زمان ومكان، والفارق بينهم بعيد كالفرق بين التبر والتراب، والسبيل الوحيد هو الخروج عن الجاهلية بجملتها إلى الإسلام بجملته عبادة وحكمًا، وإلا فهي البراءة التامة والمفاصلة الكاملة والحسم الصريح بين الحق والباطل في كل زمان ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (١).

وجاء وفد آخر بعد فشل الوفد السابق، يتكون من: عبد الله بن أبي أمية، والوليد بن المغيرة، ومُكْرَز بن حفص، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس، والعاص بن عامر(٢)، جاء ليقدم عرضًا آخر للتنازل عن بعض مافي القرآن، فطلبوا من النبي ﷺ أن ينزع من القرآن ما يغيظهم من ذم آلهتهم فأنزل الله جوابًا حاسمًا، قال تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: الآية ١٥].

وهذه الوفود والمفاوضات تبين مدى الفشل الذي أصاب زعماء قريش، في عدم حصولها على التنازل الكلي عن الإسلام، الأمر الذي جعلها تلجأ إلى طلب الحصول على شيء من التنازل، ويلاحظ أن التنازل الذي طلبوه في المرة الأولى، أكبر مما طلبوه في المرة الثانية، وهذا يدل على تدرجهم في التنازل من الأكبر إلى الأصغر علهم يجدون آذانًا صاغية لدى قائد الدعوة، كما أنهم كانوا يغيرون الأشخاص المتفاوضين، فالذين تفاوضوا مع الرسول ﷺ في المرّة الأولى، غير الذين تفاوضوا معه في المرة الثانية ما خلا الوليد بن المغيرة، وذلك حتى

(١) انظر: في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٩١) بتصرف كبير.

(٢) أسباب النزول للواحدي (ص ٢٠٠)، ونور اليقين للخضري (ص ٦١) بتصرف.

لا تتكرر الوجوه، وفي الوقت ذاته تنويع الكفاءات، والعقول المفاوضة، فربما أثر ذلك في نظرهم بعض الشيء، وفي هذا درس للدعاة إلى يوم القيامة أن لا تنازل عن الإسلام، ولو كان هذا التنازل شيئًا يسيرًا، فالإسلام دعوة ربانية، ولا مجال فيها للمساومة إطلاقًا، مهما كانت الأسباب، والدوافع، والمبررات، وعلى الدعاة اليوم الحذر من مثل هذه العروض، والإغراءات المادية، التي قد لا تعرض بطريق مباشر، فقد تأخذ شكلاً غير مباشر، في شكل وظائف عليا أو عقود عمل مجزية، أوصفقات تجارية مربحة، وهذا ما تخطط له المؤسسات العالمية المشبوهة، لصرف الدعاة عن دعوتهم وبخاصة القياديون منهم، وهناك تعاون تام في تبادل المعلومات، بين هذه المؤسسات التي تعمل من مواقع متعددة لتدمير العالم الإسلامي»[١] ولقد جاء في التقرير الذي قدمه «ريتشارد ب. ميشيل» أحد كبار العاملين في مجال الشرق الأوسط، لرصد الصحوة الإسلامية، وتقديم النصح بكيفية ضربها، جاء في هذا التقرير، وضع تصور لخطة جديدة يمكن من خلالها تصفية الحركات الإسلامية، فكان من بين فقرات هذا التقرير فقرة خاصة بإغراء قيادات الدعوة، فاقترح لتحقيق ذلك الإغراء، مايلي:

أ - تعيين من يمكن إغراؤهم بالوظائف العليا، حيث يتم شغلهم بالمشروعات الإسلامية فارغة المضمون، وغيرها من الأعمال التي تستنفد جهدهم، وذلك مع الإغداق عليهم أدبيًا وماديًا، وتقديم تسهيلات كبيرة لذويهم، وبذلك يتم استهلاكهم محليًا، وفصلهم عن قواعدهم الجماهيرية.

ب - العمل على جذب ذوي الميول التجارية والاقتصادية، إلى المساهمة في المشروعات ذات الأهداف المشبوهة، التي تقام في المنطقة العربية لمصالح أعدائها.

جـ - العمل على إيجاد فرص عمل، وعقود مجزية في البلاد العربية الغنية، الأمر الذي يؤدي إلى بُعدهم عن النشاط الإسلامي[٢].

فالمتدبر في النقاط الثلاث السابقة يلاحظ أنها إغراءات مادية غير مباشرة، وبنظرة فاحصة للعالم الإسلامي اليوم نلاحظ أن هذه النقاط تنفذ بكل هدوء، فقد أشغلت المناصب العليا بعض الدعاة، واستهلكت بعض الدول العربية الغنية جمًّا غفيرًا من الدعاة، وألهت التجارة بعضهم[٣].

ثامنًا: أسلوب المجادلة ومحاولة التعجيز:

كان النبي ﷺ قد أقام الحجج والبراهين والأدلة على صحة دعوته، وكان ﷺ يتقن اختيار الأوقات، وانتهاز الفرص والمناسبات، ويقوى على الرد على الشبهات، مهما كان نوعها، وقد

---

(١) في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية (ص ٨٩).

(٢) مجلة المجتمع الكويتية، عدد رقم ٤٢٨، ١٧ صفر ١٣٩٩هـ. نقلاً عن: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية.

(٣) انظر: في السيرة النبوية لجوانب الحذر والحماية (ص ٩١).

استخدم في مجادلته مع الكفار أساليب كثيرة، استنبطها من كتاب الله تعالى في إقامة الحجة العقلية، واستخدام الأقيسة المنطقية، واستحضار التفكير والتأمل، ومن الأساليب التي استخدمها ﷺ مع كفار مكة:

١ ـ أسلوب المقارنة:

وذلك يعرض أمرين: أحدهما هو الخير المطلوب الترغيب فيه، والآخر هو الشر المطلوب الترهيب منه، وذلك باستثارة العقل، للتفكر في كلا الأمرين، وعاقبتهما للوصول ـ بعد المقارنة ـ إلى تفضيل الخير واتِّباعه:

قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٢].

قال ابن كثير في تفسيره: «هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتًا أي في الضلالة هالكًا حائرًا، فأحياه الله، أي أحيا قلبه بالإيمان وهداه له ووفقه لاتباع رسله»(١).

٢ ـ أسلوب التقرير:

وهو أسلوب يؤول بالمرء بعد المحاكمة العقلية، إلى الإقرار بالمطلوب، الذي هو مضمون الدعوة، قال تعالى:

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطُّور: الآيات ٣٥ ـ ٤٥].

قال ابن كثير في تفسيره: «هذا المقام في إثبات الربوبية، وتوحيد الألوهية، فقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطُّور: الآية ٣٥] أي أُوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أي لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم، وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا»(٢).

وهذه الآية في غاية القوة من حيث الحجة العقلية؛ لأن «وجودهم هكذا من غير شيء أمر ينكره منطق الفطرة ابتداء، ولا يحتاج إلى جدل كثير أو قليل. أما أن يكونوا هم الخالقين

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٧٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٤٤).

لأنفسهم، فأمر لم يدعوه، ولا يدعيه مخلوق، وإذا كان هذان الفرضان لا يقومان بحكم منطق الفطرة، فإنه لا يبقى سوى الحقيقة التي يقولها القرآن. وهي أنهم جميعًا من خلق الله الواحد الذي لا يشاركه أحد»[1]، والتعبير بالفطرة مضمون الأمر المقرر بداهة في العقل.

٣ ـ أسلوب الإمرار والإبطال:

وهو أسلوب قوي في إفحام المعاندين، أصحاب الغرور والصلف، بإمرار أقوالهم، وعدم الاعتراض على بعض حججهم الباطلة، منعًا للجدل والنزاع، خلوصًا إلى الحجة القاطعة تدمغهم، وتبطل بها حجتهم تلك، فتبطل الأولى بالتبع، وفي قصة موسى عليه السلام مع فرعون، نموذج مطول لهذا الأسلوب، حيث أعرض موسى عن كل اعتراض وشبهة أوردها فرعون، ومضى إلى إبطال دعوى الإلهية لفرعون، من خلال إقامة الحجة العقلية الظاهرة، على ربوبية الله وألوهية الله[2]، وذلك في الآيات من سورة الشعراء، قال تعالى:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآيات ٢٣ ـ ٢٩].

وهكذا كانت الأساليب القرآنية الكريمة، هي الركيزة في مجادلة رسول الله ﷺ للمشركين، ولما احتار المشركون في أمر الرسول ﷺ، ولم يكونوا على استعداد في تصديقه أنه رسول من عند الله، ليس لأنهم يكذبونه، وإنما عنادًا وكفرًا، كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٣٣].

لذلك هداهم تفكيرهم المعوج، أن يطلبوا من الرسول عليه السلام مطالب، ليس الغرض منها التأكد من صدق النبي ﷺ، ولكن غرضهم منها التعنت والتعجيز، وهذا ما طلبوه من الرسول عليه الصلاة والسلام:

أ ـ أن يفجر لهم من الأرض ينبوعًا: أي يجري لهم الماء عيونًا جارية.

ب ـ أو تكون له جنة من نخيل وأعناب، يُفجِّر الأنهار خلالها تفجيرًا، أي تكون له حديقة فيها النخل والعنب، والأنهار يُفَجِر بداخلها.

ج ـ أو يسقط السماء كسفًا: أي يسقط السماء قطعًا كما سيكون يوم القيامة.

د ـ أو يأتي بالله والملائكة قبيلاً.

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٣٩٩).

(٢) انظر: مقومات الداعية الناجح، د. علي بادحدح (ص ٥٩ـ ٦٨) الأساليب السابقة من هذا الكتاب.

هـ - أو يكون له بيت من زخرف: أي ذهب.

و - أو يرقى في السماء: أي يتخذ سلمًا يرتقى عليه ويصعد إلى السماء.

ز - إنزال كتاب من السماء يقرؤونه: يقول مجاهد: أي مكتوب فيه إلى كل واحد صحيفة، هذا كتاب من الله لفلان ابن فلان، تصبح موضوعة عند رأسه(١).

ح - طلبوا من رسول الله ﷺ أن يدعو لهم فيسير لهم الجبال، ويقطع الأرض ويبعث من مضى من آبائهم من الموتى(٢).

إن عملية طلب الخوارق والمعجزات، هي خطة متبعة على مدى تاريخ البشرية الطويل، ورغم حرص النبي ﷺ على إيمان قومه، وتفانيه في ذلك لكن التربية الربانية التي تلقاها من ربه، والأدب النبوي الذي تأدب عليه جعله يرفض طلب المعجزة(٣)، وإنما كانت إجابته ﷺ:

«ما بهذا بعثت إليكم، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم»(٤).

وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينًا أسفًا لما فاته، مما طمع فيه من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه(٥)، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذه التعنتات، والرد عليها في قوله سبحانه:

﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: الآيات ٩٠ ـ ٩٦]

ونزل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

(١) انظر: المعوقون للدعوة الإسلامية، د. سميرة محمد (ص ١٧١، ١٧٢).
(٢) انظر: التربية القيادية (١/ ٣١١).
(٣) انظر: التربية القيادية (١/ ٣١١).
(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤٥٩).
(٥) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٣١٧).

تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد: الآية ٣١] (١).

إن الحكمة في أنهم لم يجابوا لما طالبوا لأنهم لم يسألوا مسترشدين وجادين، وإنما سألوا متعنتين ومستهزئين، وقد علم الحق سبحانه أنهم لو عاينوا وشاهدوا ما طلبوا لما آمنوا، وللجُّوا في طغيانهم يعمهون، ولظلوا في غيهم وضلالهم يترددون. قال سبحانه:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: الآيات ١٠٩ ـ ١١١].

ولهذا اقتضت الحكمة الإلهية، والرحمة الربانية، ألا يجابوا إلى ما سألوا، لأن سنته سبحانه، أنه إذا طلب قوم آيات فأجيبوا، ثم لم يؤمنوا عذبهم عذاب الاستئصال، كما فعل بعاد وثمود، وقوم فرعون.

وليس أدل على أن القوم كانوا متعنتين وساخرين، ومعوقين لا جادين من أن عندهم القرآن، وهو آية الآيات، وبينة البينات، ولذلك لما سألوا ما اقترحوا من هذه الآيات وغيرها ردّ عليهم سبحانه(٢) بقوله:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [العنكبوت: الآيات ٥٠ ـ ٥٢].

قال عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا، ونؤمن بك، قال: وتفعلون؟ قالوا: نعم. قال: فدعا، فأتاه جبريل فقال: إن ربك ـ عز وجل ـ يقرأ عليك السلام، ويقول: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبًا، فمن كفر بعد ذلك منهم عذبته عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة. فقال: بل باب التوبة والرحمة؛ فأنزل الله تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: الآية ٥٩] (٣).

---

(١) يعني لو أن هناك قرآناً بهذه الصفات أو هذه الشروط؛ لكان هذا القرآن الكريم، فهو ليس له مثيل، لا من قبل ولا من بعد، جواب (لو) محذوف دل عليه المقام.

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٣٢٠، ٣٢١).

(٣) صحيح السيرة النبوية (ص ٩٠).

لقد كان هدف زعماء قريش من تلك المطالب، هو شن حرب إعلامية ضد الدعوة والداعية، وتآمرًا على الحق، كي تبتعد القبائل العربية عنه ﷺ؛ لأنهم يطالبون بأمور يدركون أنها ليست طبيعة هذه الدعوة، ولهذا أصروا عليها، بل لقد صرحوا بأن لو تحقق شيء من ذلك، فلن يؤمنوا أيضًا بهذه الدعوة، وهذا كله محاولة منهم لإظهار عجز الرسول ﷺ، واتخاذ ذلك ذريعة لمنع الناس عن اتباعه(١).

تاسعاً: دور اليهود في العهد المكي، واستعانة مشركي مكة بهم:

تحدث القرآن الكريم عن بني إسرائيل طويلاً في سور كثيرة، بلغت خمسين سورة في المرحلة المكية، وفي المرحلة المدنية كان دور اليهود كبيرًا في محاولة إطفاء نور الله، والقضاء على دعوة الإسلام، وعلى حياة رسول الله ﷺ، ولم تحظ ملة من الملل؛ ولا قوم من الأقوام، بالحديث عنهم بمثل هذا الشمول، وهذه التفصيلات، ما حظي به اليهود، وحديث القرآن عنهم يتسم بمنهج دقيق، يتناسب مع المراحل الدعوية، التي مرت بها دعوة الإسلام، فقد جاءت الآيات الكريمة تشير إلى أن غفلة المشركين عن الحق، الذي جاء به رسول الله ﷺ، وعدم اكتراثهم به وبدعوته له نماذج بشرية تقدمتهم مثل عاد وثمود وفرعون وبني إسرائيل وقوم تبع، وأصحاب الرس(٢).

عندما وجدت قريش نفسها عاجزة أمام دعوة الحق، وكان المعبر عن هذا العجز، النضر بن الحارث الذي صرح قائلاً: «يا معشر قريش، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أوتيتم له بحيلة بعد.. فانظروا في شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم» فقرروا بعد ذلك إرسال النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة، لمعرفة حقيقة هذه الدعوة، لا لكي يتبعوها، ولكن لإدراكهم أن اليهود قد يمدونهم بأشياء تظهر عجز الرسول ﷺ، ولمعرفة زعماء مكة بحقد اليهود المنصب على الأنبياء جميعًا، وأصحاب الحق أينما كانوا؛ كانت بعثة المصطفى ﷺ صدمة قوية لليهود؛ وذلك لأنهم عاشوا في جزيرة العرب على حلم توارثوه طوال السنين الماضية، وهو أنه سيبعث نبي مخلص في ذلك الزمان والمكان، فرجوا أن يكون منهم؛ آملين أن يخلصهم من الفقرة والشتات الذي كانوا فيه(٣).

كان التقارب بين معسكر الكفر والشرك مع اليهود، ينسجم مع أهدافهم المشتركة للقضاء على دعوة الإسلام، ولذلك زودوا الوفد المكي ببعض الأسئلة محاولة لتعجيز النبي ﷺ.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: بعثت قريش النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلى

(١) انظر: الوفود في العهد المكي (ص ٤٠ ـ ٥١).

(٢) معالم قرآنية في الصراع مع اليهود، مصطفى مسلم (ص ٣٠، ٣١).

(٣) انظر: اليهود في السنة المطهرة، د. عبد الله الشقاري (١/١٨٨).

أحبار اليهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفا لهم أمره، وبعض قوله، وقالا: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، قال: فقالت لهم أخبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول، فقرروا فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ماكان نبؤه؟ وسلوه عن الروح، ماهو؟ فإن أخبركم بذلك فإنه نبي فاتبعوه، وإن هو لم يخبركم فهو رجل متقول، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم، فأقبل النضر وعقبة حتى قدما مكة على قريش، فقالا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أخبار يهود أن نسأله عن أمور فأخبروهم بها، فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، أخبرنا، فسألوه عما أمروهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ: أخبركم غدًا عما سألتم عنه، ولم يستثن[1]، فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحيًا، ولا يأتيه جبريل عليه السلام، حتى أرجف أهل مكة، وقالوا: وعدنا محمد غدًا، واليوم خمس عشرة، قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مُكْثُ الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطوّاف، وقول الله ﷻ:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسرَاء: الآية ٨٥].

كانت سورة الكهف قد احتوت على الإجابة لأسئلتهم، وإشارة إلى أن كهفًا من عناية الله سوف يُؤْوي هؤلاء المستضعفين من أصحاب محمد ﷺ، كما آوى الكهف الجبلي الفتية المؤمنين الفارين بدينهم من الفتنة.

وأن نفوسًا ستبش في وجوه هذه العصبة من أنصار دين الله في يثرب، بالقرب من الذين عاضدوا قريشًا في شكهم، وحاولوا معهم طمس نور الحق، بتلقينهم المنهج التعجيزي في التثبت في أمر النبوة، وهو منهج غير سليم، فمتى كانت الأسئلة التعجيزية وسيلة التحقق من صدق الرسالة وصاحبها؟! فهذا نبي الله موسى عليه السلام، وهو أعظم أنبياء بني إسرائيل، لم يعلم تأويل الأحداث الثلاثة التي جرت أمامه، وأنكر على الخضر تصرفاته، على الرغم من كل ذلك، لم تؤثر الأحداث وما دار حولها في نبوة موسى عليه السلام شيئًا، ولم يشكك بنو إسرائيل في نبوته، فلم يجعلوا مثل هذه الأسئلة أسلوبًا للتحقق من صدق الرسالة[2].

---

(١) أي لم يقل: «إن شاء الله».

(٢) انظر: مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم (ص ١٨٩).

جعل الله هذه المناسبة وسيلة للإشارة إلى قرب الفرج للعصبة المؤمنة، ليجدوا مأوى كما وجد الفتية المأوى، وليبش في وجوههم أهل المدينة، كما بش أهل المدينة في وجه أحد الفتية، ثم ذهبوا إليهم ليكرموهم وليخلدوا ذكراهم(١).

عاشرًا: الحصار الاقتصادي والاجتماعي في آخر السابع من البعثة:

ازداد إيذاء المشركين من قريش، أمان صبر الرسول ﷺ، والمسلمين على الأذى، وإصرارهم على الدعوة إلى الله، وإزاء فشو الإسلام في القبائل، وبلوغ الأذى قمته في الحصار المادي والمعنوي، الذي ضربته قريش ظلمًا وعدوانًا على النبي ﷺ وأصحابه، ومن عطف عليهم من قرابتهم(٢).

قال الزهري: «ثم إن المشركين اشتدوا على المسلمين كأشد ما كانوا حتى بلغ المسلمين الجهد، واشتد عليهم البلاء، وأجمعت قريش في مكرها، أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية؛ فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بني عبد المطلب، وأمرهم أن يدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم، ويمنعوه ممن أراد قتله، فاجتمعوا على ذلك مسلمهم وكافرهم، فمنهم من فعله حمية، ومنهم من فعله إيمانًا ويقينًا، فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله ﷺ، فأجمعوا أمرهم أن لا يجالسوهم، ولا يبايعوهم ولايدخلوا بيوتهم، حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل، وكتبوا في مكرهم صحيفة وعهودًا ومواثيق؛ أن لا يتقبلوا من بني هاشم أبدًا صلحًا، ولا تأخذهم بهم رأفة، حتى يسلموه للقتل(٣).

وفي رواية: «... على ألا ينكحوا إليهم، ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئًا، ولا يبتاعوا منهم، ولايدعوا سببًا من أسباب الرزق يصل إليهم، ولا يقبلوا منهم صلحًا، ولا تأخذهم بهم رأفة، ولا يخالطوهم، ولا يجالسوهم، ولا يكلموهم، ولا يدخلوا بيوتهم، حتى يسلموا إليهم رسول الله للقتل، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدًا على أنفسهم(٤).

فلبث بنو هاشم في شعبهم ثلاث سنين، واشتد عليهم البلاء والجهد، وقطعوا عنهم الأسواق فلا يتركون طعامًا يقدم من مكة ولا بيعًا إلا بادروهم إليه فاشتروه، يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله ﷺ(٥).

---

(١) انظر: تأملات في سورة الكهف للشيخ أبي الحسن الندوي (ص ٤٦)، وانظر: معالم قرآنية في الصراع مع اليهود (ص ٦١).

(٢) انظر: ظاهرة الإرجاء، د. سفر الحوالي (١/ ٥٠).

(٣) تفاصيل قصة الشعب وماتخللها من أحداث، دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٨٠ـ ٨٥) السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٤٣ـ ٧٢) الروض الأنف (٢/ ١٠١ـ ١٢٩).

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٥٠)، زاد المعاد (٢/ ٤٦)، الكامل في التاريخ (٢/ ٨٧).

(٥) انظر: ظاهر الإرجاء (١/ ٥١).

وكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول الله ﷺ فأتى فراشه، حتى يراه من أراد به مكرًا أو غائلة، فإذا نام الناس، أخذ أحد بنيه أو إخوته، أو بني عمه، فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ، وأمر رسول الله أن يأتي بعض فرشهم فيرقد عليها[١].

واشتد الحصار على الصحابة، وبني هاشم، وبني المطلب حتى اضطروا إلى أكل ورق الشجر، وحتى أصيبوا بظلف العيش وشدته، إلى حد أن أحدهم يخرج ليبول فيسمع بقعقعة شيء تحته، فإذا هي قطعة من جلد بعير، فيأخذها فيغسلها، ثم يحرقها ثم يسحقها، ثم يستفها ويشرب عليها الماء فيتقوى بها ثلاثة أيام[٢]، وحتى لتسمع قريش صوت الصبية يتضاغون من وراء الشعب من الجوع[٣]!

فلما كان رأس ثلاث سنين، قيض الله سبحانه وتعالى لنقض الصحيفة أناسًا من أشراف قريش، وكان الذين تولى الانقلاب الداخلي لنقض الصحيفة، هشام بن عمرو الهاشمي، فقصد زهير بن أبي أمية المخزومي، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب، فقال له: يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت؟ لا يبتاعون، ولا يبتاع منهم، ولا يَنْكَحون ولا ينكح إليهم، أما إني أحلف بالله، لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام، ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم، ما أجابك إليه أبدًا، قال: ويحك يا هشام، فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها؛ فقال له: قد وجدت رجلاً، قال: من هو؟ قال: أنا، فقال له زهير: ابْغِنا ثالثًا.

فذهب إلى المطعم بن عدي، فقال له: أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف، وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيهم؟ أما والله لو أمكنتموهم من هذه لتَجدُنَّهم إليها منكم سراعًا، قال: ويحك فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، قال: قد وجدت لك ثانيًا، قال من؟ قال: أنا، قال: ابغنا ثالثًا، قال: قد فعلت، قال: من؟ قال: زهير بن أبي أمية، فقال: ابغنا رابعًا، فذهب إلى أبي البختري بن هشام، فقال له نحو ما قال للمطعم بن عدي، فقال له: ويحك وهل نجد أحدًا يعين على ذلك؛ قال: نعم، زهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وأنا، فقال: ابغنا خامساً، فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فكلمه وذكر له قرابته وحقهم، فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد، قال: نعم، ثم سمى له القوم؛ فاتعدوا خَطْم الحَجون ليلاً بأعلى مكة، فاجتمعوا هناك، وأجمعوا أمرهم، وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها، وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حلة، فطاف بالبيت

(١) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان (ص ١٨٠).

(٢) انظر: الغرباء الأولون (ص ١٤٨) نقلاً عن حلية الأولياء، ترجمة رقم (٧).

(٣) المصدر السابق نفسه (ص ١٤٨).

سبعًا، ثم أقبل على الناس فقال: أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون، ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة، فقال أبو جهل، وكان في ناحية المسجد: كذبت والله لا تشق، فقال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حين كُتبت، فقال أبو البختري: صدق زمعة، لا نرضى ما كُتب فيها، ولا نُقر به فقال المطعم بن عدي: صدقتما، وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها، وقال هشام بن عمرو نحوًا من ذلك؟ فقال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل، تُشوورَ فيه في غير هذا المكان، وأبو طالب جالس في ناحية المسجد لا يتكلم.

وقام المطعم بن عدي إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا «باسمك اللهم»[١]. وروى ابن إسحاق أن الله ﷻ أرسل على الصحيفة الأرضة فلم تدع فيها اسمًا لله ﷻ إلا أكلته، وبقي فيها الظلم والقطيعة والبهتان، وأخبر رسول الله ﷺ بذلك عمه، فذهب أبو طالب إلى قومه، وأخبرهم بذلك وقال لهم: فإن كان كاذبًا فلكم عليَّ أن أدفعه إليكم تقتلونه، وإن كان صادقًا فهل ذلك ناهيكم عن تظاهركم علينا؟ فأخذ عليهم المواثيق وأخذوا عليه، فلما نشروها فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ. فقال المطعم بن عدي، وهشام بن عمرو: نحن براء من هذه الصحيفة القاطعة، العادية الظالمة، ولن نمالي أحدًا في فساد أنفسنا وأشرافنا، وتتابع على ذلك ناس من أشراف قريش فخرجوا من الشعب[٢].

*** دروس وعبر وفوائد:**

١ - إن مشركي بني هاشم وبني المطلب تضامنوا مع رسول الله ﷺ، وحموه كأثر من أعراف الجاهلية، ومن هنا ومن غيره، نأخذ أنه يسع المسلم أن يستفيد من قوانين الكفر فيما يخدم الدعوة، على أن يكون ذلك مبنيًا على فتوى صحيحة من أهلها[٣].

٢ - إن حقوق الإنسان في عصرنا ضمان للمسلم، والحرية الدينية في كثير من البلدان يستفاد منها، وقوانين كثيرة في أقطار العالم تعطي للمسلمين فرصًا، وعلى المسلمين أن يستفيدوا من ذلك وغيره من خلال موازنات دقيقة[٤].

٣ - من المهم أن تعلم أن حماية أقارب رسول الله ﷺ له، لم تكن حماية للرسالة التي بعث بها، وإنما كانت لشخصه من الغريب، وإذا أمكن أن تستغل هذه الحماية من قبل المسلمين كوسيلة من وسائل الجهاد، والتغلب على الكافرين، والرد لمكائدهم وعدوانهم، فأنعم

(١) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٤٣- ٥/ ٦٧- ٦٩).

(٢) السير والمغازي لابن إسحاق (ص ١٥٦- ١٦٢).

(٣) انظر: الأساس في السنة وفقهها - السيرة النبوية، سعيد حوى (١/ ٢٦٤).

(٤) المصدر السابق نفسه.

بذلك من جهد مشكور وسبيل ينتبهون إليها[١].

٤ ـ انتصر أبو طالب في غزو المجتمع القرشي بقصائده الضخمة، التي هزت كيانه هزًّا، وتحرك لنقض الصحيفة من ذكرنا من قبل، أولئك الخمسة الذين يمتون بصلة قرابة أو رحم لبني هاشم وبني المطلب، واستطاعوا أن يرفعوا هذه الظلامة وهذا الحيف عن المسلمين وأنصارهم، وحلفائهم، وخططوا له، ونجحوا فيه. وفي هذا الموقف إشارة إلى أن كثيرًا من النفوس، والتي تبدو في ظاهر الأمر من أعمدة الحكم الجاهلي، قد تملك في أعماقها رفضًا لهذا الظلم والبغي، وتستغل الفرصة المناسبة لإزاحته، وعلى أبناء المسلمين أن يهتموا بهذه الشرائح، وينفذوا إلى أعماقها، وتُوَضِّح لهم حقيقة القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وتبين لها طبيعة العداء بين الإسلام واليهود، والصليبيين والعَلْمانية، فقد يستفاد منهم في خدمة الإسلام[٢].

٥ ـ وظاهرة أبي لهب تستحق الدراسة والعناية، لأنها تتكرر في التاريخ الإسلامي، فقد يجد الدعاة من أقرب حلفائهم من يقلب لهم ظهر المجن، ويبالغ في إيذاء الدعاة، وحربهم، أكثر بكثير ممن يلقونه من خصومهم الألداء الأشداء[٣].

٦ ـ كانت تعليمات الرسول ﷺ، لأفراد المسلمين ألا يواجهوا العدو، وأن يضبطوا أعصابهم، فلا يشعلوا فتيل المعركة، أو يكونوا وقودها؛ وإن أعظم تربية في هذه المرحلة، هي صبر أبطال الأرض على هذا الأذى، دون مقاومة. حمزة وعمر، وأبو بكر وعثمان، وغيرهم ﷺ، سمعوا وأطاعوا، فلقوا كل هذا الأذى، وهذا الحقد، وهذا الظلم، فكفوا أيديهم، وصبروا ليس على حادثة واحدة فقط، أو يومًا واحدًا فقط بل ثلاث سنين عجاف، تحترق أعصابهم، ولا يسمح لهم برمية سهم أو شجة رأس[٤].

٧ ـ أثبتت الأحداث عظمة الصف المؤمن، في التزامه بأوامر قائده، وبعده عن التصرفات الطائشة؛ فلم يكن شيء أسهل من اغتيال أبي جهل، وإشعال معركة غير مدروسة لا يعلم إلا الله مداها، وغير متكافئة.

٨ ـ كانت الدعوة الإسلامية تحقق انتصارات رائعة في الحبشة، وفي نجران، وفي أزْد شَنوءة، وفي دَوْس، وفي غفار، وكانت تتم في خط واضح، سيكون سندًا للإسلام والمسلمين، ومراكز قوى يمكن أن تتحرك في اللحظة الحاسمة، وامتدادات للدعوة، تتجاوز حدود مكة الصلدة المستعصية.

---

(١) انظر: فقه السيرة النبوية، للبوطي (ص ٨٨).

(٢) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان، (ص ١٨٥).

(٣) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان (ص ١٨٦).

(٤) انظر: التربية القيادية (١/ ٣٧١).

٩ - كانت هذه السنوات الثلاث للجيل الرائد، زادًا عظيمًا في البناء والتربية، حيث ساهم بعضه في تحمل آلام الجوع والخوف، والصبر على الابتلاء، وضبط الأعصاب، والضغط على النفوس والقلوب، ولجم العواطف عن الانفجار.

١٠ - كانت بعض الشخصيات في الصف المشرك، تبنى في داخلها بالتربية النبوية، وتتأثر بعظمة شخصية النبي ﷺ، وتتفاعل في أعماقها مع المبادىء التي يقدمها الدين الجديد، لكن سيطرة الملأ وسطوة الكبراء، كانت تحول دون إبراز هذا التفاعل، وهذا الحب، وهذه التربية، وختام قصة الصحيفة تقدم لنا أجلى بيان عن ذلك(١).

١١ - قيام الحجج الدامغة، والبراهين الساطعة، والمعجزات الخارقة لا يؤثر في أصحاب الهوى، وعبدة المصالح والمنافع، لأنهم يلغون عقولهم عن التدبر، ويصمون آذانهم عن سماع الحق، ويغمضون أعينهم عن النظر والتأمل والاهتداء إلى الحق، بعد قيام الأدلة عليه، فلقد أخبرهم أبو طالب بما أخبر به الرسول ﷺ بما حدث للصحيفة من أكل الأرضة لها، وبقاء اسم الله فقط (باسمك اللهم) ورأوا ذلك بأم أعينهم، فما آمن منهم أحد، إنه الهوى الذي يغشي عن الحق، ويصم الآذان عن سماعه(٢).

١٢ - كانت حادثة المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية سببًا في خدمة الدعوة والدعاية لها بين قبائل العرب، فقد ذاع الخبر في كل القبائل العربية من خلال موسم الحج، ولفت أنظار جميع الجزيرة العربية إلى هذه الدعوة، التي يتحمل صاحبها وأصحابه الجوع والعطش، والعزلة لكل هذا الوقت، أثار ذلك في نفوسهم أن هذه الدعوة حق، ولولا ذلك لما تحمل صاحب الرسالة وأصحابه كل هذا الأذى والعذاب.

١٣ - أثار هذا الحصار سخط العرب على كفار مكة، لقسوتهم على بني هاشم وبني المطلب، كما أثار عطفهم على النبي ﷺ وأصحابه، فما أن انفك الحصار حتى أقبل الناس على الإسلام، وحتى ذاع أمر هذه الدعوة، وتردد صداها في كل بلاد العرب، وهكذا ارتد سلاح الحصار الاقتصادي على أصحابه، وكان عاملاً قويًا من عوامل انتشار الدعوة الإسلامية، عكس ما أراد زعماء الشرك تمامًا(٣).

١٤ - كان لوقوف بني هاشم وبني المطلب مع رسول الله، وتحملهم معه الحصار الاقتصادي والاجتماعي أثر في الفقه الإسلامي، حيث إن سهم ذوي القربى من الخمس يعطى لبني هاشم، وبني المطلب، ويوضح ابن كثير هذا الحكم لدى تفسيره قوله تعالى:

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ

(١) المصدر السابق (/ ٣٨٤، ٣٨٥).

(٢) السيرة النبوية لأبي فارس (ص ١٦٧).

(٣) انظر: الحرب النفسية ضد الإسلام، د. عبد الوهاب كحيل (ص ١٠١).

ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: الآية ٤١].

فيقول: «وأما سهم ذوي القربى، فإنه يصرف إلى بني هاشم، وبني المطلب، لأن بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية، وفي أول الإسلام، ودخلوا معهم في الشعب غضبًا لرسول الله ﷺ، وحماية لهم، مسلمهم طاعة لله ورسوله، وكافرهم حمية للعشيرة، وأنفة وطاعة لأبي طالب؛ وأما بنو عبد شمس، وبنو نوفل، وإن كانوا بني عمهم، فلم يوافقوهم على ذلك، بل حاربوهم ونابذوهم ومالؤوا بطون قريش على حرب الرسول ﷺ؛ ولهذا كان ذم أبي طالب لهم في قصيدته اللامية أشد من غيرهم لشدة قربهم. وفي بعض الروايات هذا الحديث: «إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام، وهذا قول جمهور العلماء إنهم بنو هاشم وبنو المطلب»[(١)].

١٥ ـ لما أذن الله بنصر دينه، وإعزاز رسوله، وفتح مكة ثم حجة الوداع، كان النبي ﷺ يؤثر أن ينزل في خَيْف بني كنانة، ليتذكر ماكانوا فيه من الضيق والاضطهاد، فيشكر الله على ما أنعم عليه من الفتح العظيم، ودخولهم مكة ـ التي أُخرجوا منها ـ وليؤكد قضية انتصار الحق واستعلائه، وتمكين الله لأهله الصابرين[(٢)]، فعن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت يا رسول الله! أين تنزل غدًا؟ في حَجته ـ قال: «وهل ترك لنا عَقيل منزلاً»؟ ثم قال: «نحن نازلون غدًا بخَيف بني كنانة، المُحَصَّب، حيث قاسمتْ قريش على الكفر، وذلك أن بني كنانة حالفت قريشا على بني هاشم، أن لا يبايعوهم، ولا يُؤْوُوهم». قال الزهري: والخيف: الوادي[(٣)].

١٦ ـ على كل شعب في أي وقت، يسعى لتطبيق شرع الله عليه، أن يضع في حسبانه احتمالات الحصار والمقاطعة من أهل الباطل، فالكفر ملة واحدة. فعلى قادة الأمة الإسلامية، تهيئة أنفسهم، وأتباعهم، لمثل هذه الظروف، وعليهم وضع الحلول المناسبة لها إذا حصلت، وأن تفكر في مقاومة الحصار بالبدائل المناسبة، كي تتمكن الأمة من الصمود في وجه أي نوع من أنواع الحصار[(٤)].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣١٢).

(٢) انظر: الغرباء الأولون (ص ١٤٩).

(٣) البخاري: كتاب الجهاد ١٨٠، باب إذا أسلم قوم في دار الحرب (٤/ ٣٣ ورقمه ٣٠٥٨).

(٤) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية (٩٨).